# ضفاف أخرى

– أمجد ناصر
– سيف الرحبي
– عزت الغزاوي

# دمشق المحروسة: الدار المسقيّة ..
# المسك المضاعف.. والدمّ الذي سال في شِقّ

أمجد ناصر*

تهبط طائرة الخطوط الجوية السورية القادمة من لندن في مطار دمشق بعد رحلة استغرقت خمس ساعات، وأجد مع زميل رحلتي الكاتب والصحافي المصري منير عبيد، مستقبلين من إدارة مهرجان دمشق السينمائي التي وقفت وراء هذه الدعوة في انتظارنا. نشرب قهوة في صالة خاصة بالضيوف ريثما ينجز الداعون إجراءات الدخول، ثم تنطلق بنا السيارة على طريق واسعة مشجرة على الجانبين، وتكون جرمانا ومخيمها(1) الذي تتكوم بيوته الإسمنتية البائسة بعضها فوق بعض، مكللة، مع ذلك، بصحون التقاط البث الفضائي، أول ما يطالعنا من ضواحي دمشق.

ها هي دمشق تظهر تحت شمس لا حيل لها، شمس تهوي، مكتنفة بالغيوم، في الأفق الغربي .

تسابق سيارتنا حافلات محملة بخضر الموسم وفواكهه تتدفق من ريف دمشق والأرياف الأبعد لتمد البشر بالنسغ الضروري للحراك في ورطتهم الوجودية المفرطة في هذا القفص الإسمنتي الكبير المسمى مدينة .

حافلات من طرز يابانية وكورية مزينة ومزركشة، مكتوبة عليها حكم وأمثال سائرة أو أقوال ظريفة، وأخرى بلا زينة أو زخرف تحمل صناديق خشبية محملة بالخيار والبندورة والفجل والباذنجان والتفاح والخرما والبرتقال ذي اللون الأخضر، تشق طريقها في أحشاء المدينة لتصل إلى أسواق الجملة .

السيارات كثيرة، والأبواق تصدح . الزحام على أشده . أسأل سائقنا عن سر هذا الزحام، فيقول إنه وقت الخروج من العمل ساعة الذروة المسائية، لكن ذاكرتي لا تحتفظ بزحام كهذا في دمشق، كما أنها لا تحتفظ بهذه الطرز الجديدة من السيارات. كانت السيارات السورية بالنسبة لواحد مثلي يأتي من لبنان قبل الاجتياح الإسرائيلي، تليق بمتحف للعاديات، أما الآن، وبعد انفتاح اقتصادي نسبي، فهي

من طرز عديدة ومن كل حدب وصوب، وإن كان الياباني منها ذا سهم وافر، ليست السيارات وكثرة طرازاتها هي ما يشكل فارقاً بين صورة دمشق الذاكرة وصورة دمشق الواقع، بل العمائر الجديدة، والمصالح التجارية التي انبثقت من لحظة انفتاح في قوانين التجارة الخارجية، تنبئ عن ذلك اليافطات المعلقة، على نحو يشوش النظر، على واجهات المكاتب، مصالح مختلطة وتجارات متباينة، من المختبرات الطبية إلى وكالات السيارات والأدوات الكهربائية، مروراً بمكاتب المحاماة والشركات السياحية تتراصف جنباً إلى جنب .

ولكن، ليس هذا هو الفارق الوحيد اللافت للنظر، بل، أيضاً، ندرة العسكر في شوارع المدينة، العسكر الذين كانوا بجيباتهم الروسية الخضراء وأزيائهم المبرقعة وأسلحتهم الخفيفة يشكلون مظهراً خاصاً بمدينة دمشق، مظهر المدينة الذاهبة إلى الحرب أو القادمة منها. الوجود الأمني الشرطي هو الأبرز اليوم. فـ «الكولبات» التي كان يرى المرء فيها رجالاً بلباس مدني يتمنطقون بالمسدسات، أو تتدلى «الكلاشنات» من أكتافهم قلت وتراجعت، تراها أمام المصالح العامة وبيوت كبار المسؤولين في الدولة والحزب والجيش، لا تبدو المدينة مستنفرة، كما دأبت على الظهور في العشرين سنة الأخيرة، بل تظهر على شيء من الدعة والاستقرار .

ولكن، إلى جانب الاسترخاء في المظهر المدني والانفتاح الاقتصادي النسبي اللذين يطبعان دمشق اليوم، هناك اليافطات التي لا تزال تحث على وحدة طبقات الشعب العامل وبناء الاشتراكية وإقامة الوحدة العربية .

يافطات تحمل شعارات ترقى إلى عهد الحرب الباردة والتوازن الدولي والمنظومة الاشتراكية، تتعايش مع إعلانات تعبر عن حركة اقتصادية متواكبة مع لحظة العولمة التي تهدم الخصوصيات والحواجز والأسوار الصينية حتى من دون أن يسمع لها صوت .

وقد خطر لي أن هذا التجاور بين البناء القديم والجديد، الجسور المعلقة والطرق الترابية، السيارة المصنعة باليد والمرسيدس، إعلانات الحزب والمسرح التجاري، هو مظهر غير مفكر به، من مظاهر ما بعد الحداثة ..

وعلى كل حال، تبدو سوريا لزائرها اليوم البلد العربي الأكثر تماسكاً في وجه العصف الكوكبي، الذي تقوضت تحت زعانفه وشفراته الفولاذية منظومات سياسية واقتصادية كبرى. وبهذا المعنى، لا يزال للأيديولوجيا حضور في دمشق، بل إنها «العصبية» الظاهرة التي تستند إليها القوة ويقوم عليها السلطان .

### فندق الشام، وكتّاب دراما

يذهب بنا الداعون إلى فندق الشام، وهذا إضافة سياحية لم تكن موجودة في آخر مرة زرت فيها دمشق. وهو على ما يبدو ثمرة مشاركة بين القطاعين الخاص والعام. فمعظم المؤتمرات والندوات التي تعقدها مؤسسات الدولة تقام هناك، كما ينزل فيه المشاركون فيها.

يقع الفندق في قلب دمشق التجاري وبالقرب من أحيائها الراقية، حيث يصعب على من يريد التسوق أو الذهاب إلى السينما أو حتى المشي أن يتفاداه .

ولسبب ما، أصبح مقهى البرازيل، التابع للفندق، وهو مقهى زجاجي على الطريقة الفرنسية، ملتقى الكتاب والشعراء والممثلين والصحافيين، فلم يعد مقهى «الهافانا»، يجتذب إليه المثقفين كما كانت عليه الحال في السبعينيات والثمانينيات، أما مقهى «الروضة» فهو يلم شعث من تبقى من المثقفين العراقيين في العاصمة السورية، ومن المترددين على مقهى الهافانا، الذي تجدد وأصبحت جدرانه الخارجية من الرخام الأسود، الشاعر العراقي مظفر النواب، أما عبد الوهاب البياتي، فقد رأيته يرابط يومياً في مقهى البرازيل، رغم انه يقيم رسمياً في عمان .

كذلك، تجدد «اللاتيرنا» أو القنديل الذي كان مقهى ومطعماً يتمترس فيه المثقفون السوريون في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، ينفقون جل وقتهم ويهرون أعصابهم في الحديث عن قصيدة النثر، والتفعيلة، ويخوضون في أحاديث ممنوعة سياسياً، لكن السلطة، على كل حال، كانت تغض الطرف عن هذا الطراز من النقد والمعارضة، ما دام الأمر لا يصل إلى حد العمل السياسي المنظم أو التعرض لأمن الدولة .

وهذه ميزة رآها المثقفون العراقيون الذين قذفت بهم أقدارهم إلى دمشق في أواخر السبعينيات في أول محطة من «أوديستهم» الطويلة ضرباً من التسامح غير المعهود بالنسبة لهم، وأنستهم «طراوة» الشام ونظامها أن النظامين يشتركان في أصل أيديولوجي واحد هو «حزب البعث العربي الاشتراكي»، بل طالما تساءلوا، تحت غمر هذه «الطراوة»، وتحت خفّة هواء الشام كيفَ يستوي أن يكون النظامان متحدرين من منشأ واحد وفكرة واحدة .

فليقل المثقفون، ما داموا يبسطون نقدهم على المقاهي، ما يشاؤون، فلن تهتز ريشة في قنزعة الدولة العالية، كان هذا، ولعله لا يزال، هو لسان حال النظام السوري الذي يدرك أن لا تهديد يأتي من جهة المقهى أو الحانة .

كانت نقطة الارتكاز في «اللاتيرنا» الشاعر علي الجندي، وقد التف حوله نفر من الشعراء والكتاب الشبان، يعطي بجرمه الضخم / مظهراً لـ«العرّاب» الثقافي، ولكن الذي لا يقل صعلكة وإقبالاً على الحياة من أصغر المتحلقين حوله وأكثرهم شبقاً.

أزيلت بحيرة الماء التي كانت تميز صحن «اللاتيرنا» وترطب أجواءه، على طريقة «صحن الديار» الدمشقية، ولم يعد يجلس فيه علي الجندي، بل إن الجندي بعد أن تقدمت به السن، قد هجر دمشق كلها، وعاد إلى بلدته «السلمية» بزوجة «ثالثة» صغيرة السن كان يسميها القرقورة، أما نجم «اللاتيرنا» الآن، ومركز الجذب فيه، فهو الشاعر لقمان ديركي الذي قفز دفعة واحدة من ظلال «قصيدة النثر» إلى أضواء الدراما التلفزيونية وعالم الفنانين الصاخب، تراه في «القنديل» وقت الظهيرة، خصوصاً، مصحوباً بزوجته الممثلة أمية ملص ابنة المخرج السينمائي المعروف محمد ملص، يدخن ويصخب ويدلي بملاحظات وأوامر للمحيطين به من ذوي التطلعات والأوهام الكتابية والفنية. يتعامل نادلو «القنديل» مع ديركي بصفته زعيم الفنانين والكتاب الشباب، ويعملون كسكرتاريا له، يسجلون أسماء المتصلينبه

«على المطعم» وأرقام هواتفهم، ويحفظون له الرسائل والسيناريوهات أو الكتب التي يتركها الذين يأتون لرؤيته ولا يجدونه .
لكن «مقهى البرازيل» وليس «اللاتيرنا» هو الذي سيكون عليَّ أن أتخذه مطرحاً للقاءاتي ومواعيدي طوال إقامتي في دمشق، وهو المكان الذي يمكن أن تقابل فيه معظم المثقفين والفنانين، فما عليك سوى أن تجلس هناك وسيأتي، حتماً، عاجلاً أو آجلاً، من تسعى إلى لقائه، من دون موعد .

* * *

لم يكن ممكناً أن تصادف في السبعينيات وحتى مطلع الثمانينيات كاتباً أو شاعراً سورياً يجرؤ على التفكير في الكتابة إلى التلفزيون، فذلك عالم للتسلية واللهو، وربما الابتذال أيضاً، لا يجدر بالكاتب أن يضيع وقته فيه، كما لا يجدر بكتابته أن تنزل إلى هذا الدرك .
ولعل الأدباء محقون في نظرتهم إلى هذا الجهاز الإعلامي الخطير، فمعظم المواد الدرامية التي كان يبثها التلفزيون لا تتوافر على الحدود الدنيا من الدراما الجادة التي تعالج قضايا المجتمع ومشكلات الفرد، فضلاً عن أن هذه المواد كانت تتسم بفقر مدقع في الخيال، كانت مجرد مواد لتزجية الوقت يكتبها أشخاص من خارج الحقل الثقافي، بعضهم من الممثلين الفاشلين، ولكن الذين يلمّون بتقنية كتابة السيناريو والحوار، وبعضهم الآخر من العاملين في حقول على تماس يومي مع حياة الناس وإشكالاتهم، كالطب والمحاماة، ويأنسون في أنفسهم هوى للكتابة .
لكن الأمر لم يعد كذلك، فاليوم، وتحت طائلة أسباب عدة، أبرزها تحطم أحلام التغيير وإخفاق «تطبيقات» رؤاهم الأيديولوجية في نماذجها العالمية والعربية، دخل الكتاب والشعراء السوريون ميدان الدراما، كما لم يفعل المثقفون العرب في أية ساحة ثقافية أخرى .
كانت السياسة في عقدي السبعينيات والثمانينيات والتحولات الأدبية والهموم الجمالية تكوّن، مجتمعة، الهتافات البعيدة والغامضة التي يسعى المثقفون السوريون في أثرها مُسَرْنَمين .
لا شيء كان يعلو أو يتقدم على أحلام التغيير وشعاراته .
كان المثقفون السوريون، بمجملهم، معارضين لسياسات النظام، حتى لو كانت، بالمصادفة تتقاطع مع شعاراتهم، فالأصل في المثقف أن يكون معارضاً جذرياً، وفي أضعف الإيمان انتقادياً لنظامه. والحال، لم تكن لقاءات المثقفين السوريين وتجمعاتهم الخاصة تخلو من حديث السياسة .
وقد حظي «التدخل» العسكري السوري في لبنان بأكبر قدر من حبر المثقفين السوريين وعصبهم، كذلك سكنت القضية الفلسطينية في تصور مغاير بالكامل لتصور الحكم وأقرب ما يكون إلى اليسار الفلسطيني، وجدان المثقفين السوريين ومسلكهم، إضافة بالطبع إلى المفردة السحرية، المتعالية «الديمقراطية»، فكيف يمكن لمثقفين من هذا النوع أن يلهوا في تدبيج مسلسلات إلى التلفزيون- الملهاة؟
هكذا لاحظت أن الغالبية العظمى ممن أعرف من الكتاب والشعراء السوريين ينخرطون في كتابة الدراما التلفزيونية، فمن النادر أن تلاقي كاتباً أو شاعراً سورياً لم يقدم عملاً درامياً واحداً، أو ليس يعكف على

كتابة واحد .
فإن سألت أحد هؤلاء ماذا تفعل هذه الأيام؟ أجابك: أكتب عملاً، و«العمل» هو المصطلح الدارج في الوسط التلفزيوني للدراما..
وقد صرت من فرط تكرر هذه الحالة أبادر الكاتب أو الشاعر بالقول: هل لديك «عمل»؟ فيأتي الجواب غالباً بالإيجاب. الوحيد من بين الذين التقيتهم قال لي إنه لم يكتب عملاً ولن يكتب هو الشاعر عادل محمود الذي كان، إلى وقت قريب خلا، يدير شركة للإنتاج التلفزيوني .
وعادل محمود العائد إلى بلاده مؤخراً، بعد غيبة عشر سنين قضاها في الإعلام الفلسطيني في كل من قبرص وتونس ليس متفائلاً بالمشهد الثقافي السوري الراهن، ولا بالمناخ العام الذي يطبع البلد، ويرى أن تغيرات الحياة السورية التي بسطتها أمامه الميالة نحو شيء من الديمقراطية وقبول الاختلاف و«اللبرلة» ليست تغيرات في العمق، كان يتحدث بنفس الثقة التي عهدتها فيه عندما التقينا أول مرة أواخر السبعينيات، وكان الشعر الذي هجره على ما يبدو طويلاً هو خلاصه الوحيد .
ليست، إذاً، هذه الهبّة الدرامية والكتابة للصحافة الخليجية بلا سبب، فالإحباط الذي أصاب مشاريع التغيير العربية التي كان المثقفون عمادها ووقودها أيضاً، دفع الغالبية العظمى منهم إلى مغادرة العمل السياسي بمعناه الحزبي، فنادراً أن تجد اليوم، مثقفين عرباً لا يزالون أعضاء في أحزاب وتنظيمات سياسية، بل، ونادراً، أن تجد بقية رمق في هذه الأحزاب والتنظيمات نفسها التي كانت تملأ أفق الحياة العربية وعوداً وعلامات نصر لم تتحقق قط .
وحال المثقفين السوريين مثل حال نظرائهم العرب، مع الإلماح إلى خصيصة في الوضع السوري... لم تعد كذلك، اليوم، وهي أن «البديل» الجدي للنظام كان في نظر معظم المثقفين كارثياً إلى حد يمكن أن يدفع البلاد إلى حرب أهلية محققة .
إنني أشير هنا، إلى الحرب المعلنة التي جرّدها «الإخوان المسلمون» على الحكم في الثمانينيات وأُدخل البلد في دوامة من العنف والدم غير مشهودة في التاريخ السوري، لكن العنف «الإخواني» قوبل بعنف أشد هولاً من النظام، عنف طال مدناً وأحياء، واجتث شأفة «الإخوان» من جذورها، وقدم «درساً» رهيباً للقوى والجماعات التي يمكن أن تحذو حذو «الإخوان» عن كيفية رد النظام وطبيعة دفاعه عن وجوده .
هذا البديل «الإسلاموي» الذي لم يجهد لإخفاء رائحته الطائفية، ربما، كان أحد الأسباب التي دفعت العديد من المثقفين السوريين، وكلهم بطبيعة الحال يساريون، إلى إعادة النظر في المعادلة السياسية الداخلية، وتجميد صراعهم المباشر مع النظام كي لا يصب في مصلحة «الإخوان المسلمين» .
هذه الأحداث، رغم مرور أكثر من عشر سنين على انصرامها، لا تزال ماثلة، بقوة، في خلفية مشهد الحياة السورية رغم أن السطح يوحي بعكس ذلك .
وإلى الانفضاض عن العمل السياسي، وليس المواقف السياسية، الذي دفع عدداً من الكتاب إلى خوض ميدان الدراما التلفزيونية، فإن هناك أسباباً موضوعية جعلت الدراما السورية مطلوبة، وعززت علاقة الكتاب بها، منها تكاثر محطات التلفزة الفضائية والأرضية، وطول ساعات البث، والتنافس بين

شركات الإنتاج الخاصة، ورغبة المشاهدين في التنويع على الدراما المصرية التي تسيطر على المشهد تماماً .

وفي ظني، أن نجاح مسلسل «نهاية رجل شجاع» الذي وضع له السيناريو والحوار الكاتب حسن.م. يوسف انطلاقاً من رواية للكاتب المعروف حنا مينه، وغيره من الأعمال الاخرى قد شجع الكتاب والشعراء على الدخول في هذا الحقل، ولكن من دون أن تقترب أعمالهم من نقد اللحظة الراهنة، فظلت تدور، بمعظمها، في فلكين لا تتجاوزهما، الفنتازية التاريخية أو التاريخ الفعلي، ولكن، الذي يتوقف عند مجيء «حزب البعث» إلى السلطة العام 1961 ولا يجاوزه .

والحال، ليس الشاعر ممدوح عدوان وحيداً الآن في ساحة الدراما التلفزيونية، وإن كان من السباقين إليها، فهناك ممن التقيت في «مقهى البرازيل» التابع لـ«فندق الشام» الكثير، أمثال: نهاد سيريس، رياض عصمت، سحبان سواح، عمار مصارع، لقمان ديركي، حكم البابا، خالد خليفة، خليل صويلح، إضافة إلى عدد آخر من الذين يكتبون الدراما، ولم ألتق بهم في رحلتي هذه .

ويبدو أن إغراء الكتابة إلى التلفزيون يتزايد يوماً بعد يوم، خصوصاً بعد أن أثبت الكتاب والشعراء تفوقاً كاسحاً على أولئك الذين كانوا يحتكرون كتابة الدراما من خارج الحقل الأدبي، وليس المردود المالي، على أهميته الحاسمة في حياة المثقفين المعيشية البائسة، هو العامل الوحيد وراء سعي الكتاب والشعراء إلى الدراما التلفزيونية، بل كذلك الأزمة التي يعاني منها قطاع النشر حالياً، والمصاعب التي تواجه حركة الكتاب .

فهناك روايات لم يتمكن الكتاب من نشرها في كتاب، فحوّلوها إلى عمل درامي، وهناك قصص قصيرة جرى تحويلها إلى سهرات تلفزيونية .

هذا دون أن ننسى إغراء وغواية مخاطبة جمهور واسع من الناس عبر العمل الدرامي، وهو ما ليس ممكناً أو متاحاً للكتاب المطبوع .

من يدخل «مقهى البرازيل» في «فندق الشام» يرَ خليطاً عجيباً من الكتاب والشعراء والممثلين والمخرجين والممثلات، أو الفتيات الساعيات إلى التقاط فرصة للتمثيل، أما الأحاديث التي تدور وسط غيوم من الدخان وفناجين القهوة فهي تتحدث عن «الأعمال»، من يكتب، ومن دخل التصوير، ومن أمّن تمويلاً، ومن تعاقد مع فضائية عربية في أوروبا، وهكذا في أيام قليلة جالست، بفضل أصدقائي الكتاب والشعراء، ذوي الاهتمامات الدرامية عدداً من الممثلات والممثلين الذين لم أر بعضهم من قبل إلا على الشاشة، أو لم أرهم قط .

أتذكر وأنا أرتشف أول فنجان قهوة لي في «مقهى البرازيل» محاطاً بهؤلاء أن آخر مرة لي في دمشق كانت مظللة بظلال قاتمة عكستها الأحداث الضخمة لتلك اللحظة؛ لحظة العصف الإسرائيلي بلبنان، وخروجنا من بيروت بقامات مائلة وأرواح كسيرة تحت ضغط العاصفة .

تلّ شهاب: شلالات تهدر في الذاكرة

لم تكن، إذاً، آخر مرة لي في دمشق مجرد زيارة عابرة، كما هي حالي اليوم، بل محاولة للإقامة فيها في ظل حالة انكسار مشهودة ؟
كان ذلك في أعقاب حصار بيروت أواخر صيف العام 1982 .
خرجت من بيروت مع آخر الخارجين منها من الفلسطينيين والعرب المنضوين تحت لواء المقاومة الفلسطينية إلى مدينة بعلبك، حيث كانت زوجتي فرت بطفلتنا يارا البالغة ثلاث سنوات مع بدء الغارات الإسرائيلية المكثفة على مواقع مختارة في بيروت الغربية، لم يكن بعضها بعيداً عن بيتنا .
كان اسمي مسجلاً على قوائم المغادرين إلى تونس، فقررت، في اللحظة الأخيرة، أن أذهب إلى البقاع اللبناني، وربما من هناك إلى سوريا، بدلاً من الذهاب إلى تونس .
كانت زوجتي التي ذهبت إلى بيت ذويها في بعلبك تظن أن الغارات الاسرائيلية لن تستمر طويلاً .
أيام قليلة ونعود بعدها إلى بيتنا في بيروت .
ولكنها كانت مخطئة .
فما ظنت أنه لن يستغرق سوى أيام قليلة استغرق فصل الصيف بأسره .
كما أننا لن نعود، أبداً، إلى بيتنا في بيروت .
كانت أكثف غارات شهدتها المنطقة العربية على مدار تاريخها، ربما، باستثناء ما شهدته سنوات الحرب العراقية الإيرانية التي ظلت تخض الهواء وتطحنه نحو ثماني سنوات .
مكثتُ بضعة أيام في بيت أهل زوجتي في بعلبك التي لم تكن بعيدة تماماً، على كل حال، عن الجحيم الذي فتح أبوابه وكواته على بيروت الغربية وبعض مناطق الجبل، إذ بالقرب منها وقعت معركة بين الطيران السوري والطيران الإسرائيلي أسفرت عن مجزرة للطائرات السورية التي سقط منها ما يقارب ثمانين طائرة حربية .
كانت الليالي القليلة التي قضيتها في بعلبك مليئة بالكوابيس .
لم أصدق أنني خرجت حياً من مدينة تحطمت أمام أنظار العالم دون أن يتمكن أحد من زجر الطائرات الاسرائيلية التي كانت تفلح سماءها أثلاماً صغيرة، ولكن الذي لم أصدقه أكثر هو كيف استطعت النفاذ من بين حواجز الإسرائيليين و «القوات اللبنانية» التي كانت تحكم قبضتها على جميع مخارج بيروت وصولاً إلى مدينة «صوفر» في جبل لبنان ..
هذه الحقيقة وحدها جعلتني أرتعد فرقاً كلما تذكرتها ...
كان قتلُ الذين يشتبه بعلاقتهم بالمقاومة الفلسطينية عملاً لا ينطوي على تردد أو تساؤل طويل، فقد اختفى، إلى يومنا هذا، ثلاثة مهندسي صوت عراقيين كانوا يعملون في الإذاعة الفلسطينية التي كنت أعمل فيها يومذاك، ولم يعثر لهم على أثر .
حدث ذلك في ربع الساعة الأخير من الحصار، كثَّف الإسرائيليون قصفهم من السماء والأرض والبحر على نحو لم تعرفه المدينة من قبل، أراد الإسرائيليون، على ما يبدو، أن يبلغوا المحاصرين رسالة، لا

التباس في مضمونها المرعب والمهين في آن، الحصار سيستمر والقصف لن يتوقف حتى ترفعوا الرايات البيض ..
تحت ضغط نحو ربع مليون قذيفة وصاروخ كل يوم على مُرّبع صغير من الأرض يدعى «بيروت الغربية» بدأ بعض المثقفين العرب والفلسطينيين الخروج من بيروت بمغامرة، لا تقل خطراً عن البقاء في المدينة المحاصرة .
تمكن بعضهم من اجتياز الحصار، ولم يتمكن البعض الآخر، ومن بين هؤلاء مهندسو الصوت العراقيون الثلاثة سيئو الحظ .
كان عزائي الوحيد في بعلبك وجود زوجتي وطفلتي اللتين لم أرهما منذ ثلاثة أشهر تقريباً، فتركت نفسي للعواطف المحتبسة، وتلك التي يؤججها الخوف وغموض المصير .
كان مجيء صديقي الكاتب الأردني موفق محادين للاطمئنان عليَّ في بعلبك مفاجأة ضاعفت عزائي .
كان موفق يقيم، منذ منتصف السبعينيات، في العاصمة السورية، وكان هو، بين اعتبارات أخرى، من أسباب ذهابي إلى دمشق. فمن قبل كنت أزور دمشق بين حين وآخر، ولكنني لم أفكر في الإقامة فيها .
كانت بيروت بالنسبة لواحد مثلي، وفي نظر المثقفين والمناضلين السياسيين العرب كذلك، مدينة لا تقارن بأية مدينة أخرى .
مهرة المدن الصاهلة
قلعة التمرد
مختبر التغيير
مطبعة العالم العربي
مسرح الأحلام والهلوسات
ورشة الحداثة العربية ...
لم نكن نفكر، بالطبع، بما يسببه وجودنا من تفتيت وتشظية لمعادلة العيش المشترك اللبنانية، هشة التركيب أصلاً، فما كان مهماً بالنسبة لنا، على نحو انخطافي، ونعمل على تعميمه عربياً هو تحرير الحياة العربية من سلطة الدولة غافلين عن المجتمع اللبناني الذي يتفتت، تحت سطح الشعار، مزقاً وشظايا . كان تقويض أركان الدولة العربية القائمة حلم الذين اتخذوا من بيروت نموذجاً وقلعة لهم .
لكنها كانت قلعة محاصرة، على نحو محكم، بالدولة العربية واسرائيل .
ولن يطول الوقت حتى تسقط هذه القلعة بفعل السوس الذي ينخرها من الداخل، والتواطؤ الصامت والمريب بين إسرائيل والدولة العربية من الخارج .
لم أكن أصدق أن سقوط بيروت تحت فوهة «الميركافا» ومناظير أرئيل شارون المقرّبة، هو في وجه من وجوهه، مثل سقوط غرناطة: نهاية حلم ومشروع وزمن، إلاّ بعد أن سقطت فعلاً .
كان الجرح ساخناً، ولم يكن ممكناً تقدير عمقه .
وكنت قريباً من الركام إلى حد كان صعباً تبين حجمه ومداه .
وفي ظل الوضع الذي كان عليه العالم العربي يومذاك، وربما لم يزل، كانت دمشق هي العاصمة الأقرب

إلى بيروت على غير صعيد، ولهذا السبب بالذات، تلقت، من دون العواصم الأخرى، القسط الأكبر من استحقاقات الاجتياح الإسرائيلي للبنان .

هكذا، وقبل أن يبرد الجرح، انطلقت وزوجتي وطفلتي من بعلبك إلى دمشق في رحلة لا تتجاوز ساعة بالسيارة، لينتهي بي المطاف مقيماً في الجادة الثالثة من منطقة «شورى» في سفح «قاسيون» الدمشقي على بعد جادة أو اثنتين من بيت ذوي صديقي الشاعر نوري الجراح الذي التحق بنا في بيروت العام 1981، وأصرّ على أن يبقى هناك بعد خروجنا ليكون شاهداً على مجزرة صبرا وشاتيلا التي ستحدث بعد قليل .

* * *

كانت دمشق، في نهاية صيف العام 1982 المشؤوم، تموج بما أسفر عنه القصف الإسرائيلي للبنان . نازحون لبنانيون وفلسطينيون مدنيون فروا بأرواحهم من جنون القصف الاسرائيلي، فصائل فلسطينية وعربية كانت مستضافة من لدن الفلسطينيين في لبنان، مثقفون وصعاليك وحالمون، ضربت زعانف العاصفة الإسرائيلية مقاهيهم ومرابعهم وقلبتها رأساً على عقب، تجار أضرت الحرب والحصار بمصالحهم، وآخرون يتسوقون تحت ضغط الحاجة وانتهازاً للفرصة، بضائع سورية رخيصة ويرسلونها إلى لبنان .

كان يكفي أن ينزل المرء إلى فنادق «الصالحية» أو «المرجة» أو «الحجاز» أو يذهب إلى «مخيم اليرموك» ليرى كم من الناس تهجّروا أو هجروا بيوتهم في لبنان الذي كانت الطائرات الإسرائلية قادرة على انتقاء أصغر هدف فيه وضربه، حتى لو كان بيتاً في زقاق ضيّق .

كان الخارجون من بيروت يتلاقون، تحت وطأة مصابهم الذي أعاد ذكريات «النكبة» أو هزيمة حزيران 1967، لتجاذب أطراف حديث، غالباً ما يكون عن بيروت وما جرى فيها، يلتقون من أجل أن يكونوا عزاء، لا يمكن لغيرهم أن يعرف فعالية ترياقه، بعضهم لبعض، ولم يكن هناك أي شيء صالح للحديث عن بيروت سوى بيروت، كنت أهبط يومياً من «شورى» إلى «الصالحية» للقاء بعض الأصدقاء ولقراءة الصحف اللبنانية في مكاتب المقاومة الفلسطينية .

كانت قراءة الصحف اللبنانية أكثر من مجرد عادة، إنها الآن برهان على أن العلاقة مع بيروت لم تنقطع، على أننا لا نزال نتلقى خبراً، نسمة، شيئاً ما من ذلك الفردوس الجريح .

لقد حجبت بيروت عني دمشق، فلم أرها، حتى أنني، بالكاد، كنت ألتقي أصدقائي من المثقفين السوريين الذين كنت آتي إلى زيارتهم، خصيصاً، قبل الاجتياح .

ولا أدري الآن، حقاً، هل كل ما حصل مجرد مصادفة أم لا، فمع وصول الخارجين من بيروت إلى دمشق كان التلفزيون السوري يبث مسلسلاً مصرياً عن سقوط غرناطة، عن أبي عبدالله الصغير الذي سلم مفاتيح مملكته إلى أيدي أعدائه وقاهريه .

لقد بدا الأمر، لكثيرين منا، ذا دلالة تتجاوز المصادفة، أبعد من وقع الحافر على الحافر .

كانت اللحظة على كل حال، ظالمة لنا جميعاً، وعلى الأخص للمدينة التي يشعر العربي فيها بأنه في

مدينته وبين أهله .
هكذا سأقيم شهوراً في دمشق، نازلاً صاعداً بين «شورى» و «الصالحية»، لائباً في حيّز صغير من المكان لا أبرحه .
بالكاد، كان الهواء يحمل إليّ ضوع الياسمين الذي تترنح تحته ليالي دمشق، وقلما كان يتخطّف نظري، كما دأب من قبل، جمال المرأة الشامية الراكز، العفي، المصفّى، المربّى في الظل، الجمال بعلامته الظاهرة «لي» يومذاك وربما إلى يومنا هذا .
البياض، البضّ، الرّيان الضارب في حمّرة طفيفة تشبه حمرة مشمش الشام نفسها .
مرتان اثنتان خرجت فيهما من مُربعي الدمشقي الصغير، واحدة على شكل «سيران» شامي إلى «الربوة» اصطحبني فيه، مع زوجتي وطفلتي، صديقي موفق محادين وزوجته «يومذاك» وطفله و «السيران»(2) إلى الربوة، عادة شامية قديمة يحمل الناس معهم متاعاً للجلوس والأكل ويصرفون نهارهم، تحت ظلال الأشجار، هرباً من الصيف الدمشقي اللاهب والربوة التي تقع في ظاهر دمشق، وتتخللها الأشجار والمياه الغزيرة، هي موضع روايات تاريخية متواترة تزعم أنها كانت مأوى للسيدة مريم وابنها السيد المسيح عندما كانا يأتيان إلى دمشق .
أما المرة الثانية التي خرجت فيها من مربعي الدمشقي فكانت لزيارة عمي المقيم في بلدة تل شهاب التي ينتصب على أطرافها سياج شائك معزز بحقل ألغام يفصل الحدود السورية عن الأردنية، أُقيم بعيد مواجهات أيلول «سبتمبر» العام 1970 لمنع تسلل الفدائيين الفلسطينيين إلى الأردن؟
قبل هذا التاريخ، كان خط الحدود وهمياً، فلم تكن ثمة فواصل طبيعية أو اصطناعية، تفصل بين الأرض السورية والأردنية، التي تشكل امتداداً واحداً لسهل حوران المستحق في الأزمنة الرومانية لقب «إهراءات روما» . سأترك، هنا، لذاكرتي أن تستحضر صوراً، أن تتداعى، فلن أتمكن من كبح اندفاع الصور وانثيال الذكرى .
تشتهر «تل شهاب» بشلالاتها التي قد تكون الأكبر في بلاد الشام، فضلاً عن كونها أحد معابر التهريب الأساسية بين الأردن وسوريا قبل أن يجعل السياج الشائك الملغم، هذا النشاط، الذي ازدهرت بسببه القرى الواقعة على الحدود، نسياً منسياً، يمكن للناظر إلى الشلالات من الأسفل أن يرى تدفقاً عنيداً ومتواصلاً لمياه غزيرة تسقط من حالق لتصطدم بقوة على الصخور وتطير رذاذاً يصنع ضباباً خفيفاً .
وبالقرب من مساقط المياه، ثمة مطاحن حبوب تعمل بقوة الدفع التي يوفرها سقوط الماء .
كان يمكن للمرء أن يرى نساء الفلاحين، بالقرب من دوابهن، حمير غالباً، وأحمالهن ينتظرن دورهن لطحن حبوبهن، وأخريات يسلكن طرقاً وعرة وراء بهائمهن التي تنوء بأكياس الطحين صاعدات الطريق الشاقة إلى كتف الوادي. وفي الجهة المقابلة للشلالات، ثمة بيوت مبنية من حجر البازلت الأسود أو اللبن الطيني المخلوط بالتبن على تلّة جرداء تبدو لناظرها، من بعيد، كأنها رجم وثني لحراسة الشلالات أو عبادتها .
هذا الرجم من الحجارة السوداء واللون الطيني هو بلدة تل شهاب القديمة، التي تستمد اسمها، كما هو واضح، من موقعها «التل»، ومن اسم شخص يدعى شهاب لا أعلم من يكون .

للبلدة جناح جنوبي أقل إثارة هو ذاك المسمى «المنشية»، المشيدة معظم دوره على كتف نهر صغير محاذ للحدود الأردنية، ففي مقابل «تل شهاب» و«المنشية» يمكن رؤية بيوت أربع قرى أردنية، هي: الطرة، الشجرة، عمراوة، الذنيبة .

وبعيداً عن الشلالات ومحيطها، ثمة بساتين على امتداد النظر، تربة حمراء كأنها أكباد فتتت للتو طنابر تجرها خيول «مكدشة» صابرة تحت أحمالها من الغلال، صبايا بمناديل رؤوسهن الملونة تسمى «طفخات» وأثوابهن السود تسمى «شروشا» يضحكن ويضعن أيديهن على أفواههن كأن الضحك عيب أو عورة، فلاحون بكوفيات منقطة بالأسود تسمى «سُلوكا»، وعُقُل سود وسراويل سوداء مربوطة بـ«دكة» قماشية أو مطاطية، الأخيرة للصغار فقط، فضفاضة السرجِ إلى حدّ أنها تخبُّ بين الساقين وتنتهي ضيقة تماماً عند القدمين، بدو بقامات نحيلة تحت دشاديشهم المجعدة بوجوه سمر ضامرة، رؤوسهم ملفعة بـ«الحطات» أو «الكوفيات»، وبعيونهم الحادة الحذرة يرعون قطعانهم الأبدية على هوامش الحقول وحواف البساتين مشرئبين لأي طارئ .

نايات تتناهى من البعيد مجروحة، ورجع أغانٍ ملتاعة، وسماء زرقاء واسعة لا حدود لزرقتها واتساعها .

كانت هذه صورة لتل شهاب في ذاكرة الطفل الأردني الذي دأب على المجيء إلى بيت عمه في عطل الصيف المدرسية، ظلت، كما كانت عليه، حتى آخر زيارة قام بها، ولم يعد طفلاً لحظتها، أثناء إقامته في سوريا خريف العام 1982، هذا الطفل الذي لم يعد موجوداً؛ الطفل الذي كنته .

لكن صورة تل شهاب تلك التي أغرت بهذين الاستطراد والتداعي لم تعد تحتفظ اليوم شتاء 1996 بواحد من أهم عناصرها وأكثرها إثارة للنجوى والخيال؛ الشلالات .

فالشلالات التي نقف على كتفها، الآن، أنا وعمي وأبي الذي عبر بسيارته «أوبل» الألمانية المتداعية الحدود الأردنية – السورية ليراني، لم يبق منها سوى خيط رفيع من المياه المتسربة من قنوات الري والحقول المجاورة .

فقد حوّلت السلطات المعنية مياه «نبع الفوار» و«بحيرة المزيريب» التي كانت تغذي الشلالات بالمياه، إلى أغراض الشرب والري، فصار مجرى الشلالات جافاً موحشاً يردد في ذاكرته أنشودة مياه متدفقة لن يُسمع لحنها الفاتن، على الأغلب، مرة أخرى، ليست الشلالات هي الوحيدة التي أُفرغت من نُسغها وحياتها، بل كذلك رجم الحجارة السود الذي هجره، هو الآخر، معظم ساكنيه فصار أطلالاً بحق، تسرح بينها كلاب سائبة عجفاء أو أطفال بثياب بالية، يحمل بعضها ماركات رياضية غربية مزورة على الأغلب. يطاردون بعضهم بعضاً بين الأسوار القصيرة والحيطان المتهدمة، فتفح الرائحة الحريفة لروث البهائم، وتتقافز دجاجات وديوك هنا وهناك.

مررنا أثناء تجوالنا، أبي وعمي وأنا، أمام دكان صغير مبني من اللبن الطيني، حديث العهد، متنح قليلاً عن بقية البيوت. كان ثلاثة رجال يصعب تقدير أعمارهم بسبب لحاهم النابتة ورؤوسهم المغطاة بـ«الشمغ»، وهندامهم المتشابه، جالسين، اثنان من هؤلاء كانا يتربعان على دكة طينية، وثالث مقرفص أمَامهما، يشربون الشاي من إبريق توتياء صغير، ويدخنون، سلمنا عليهم فهبّوا واقفين، تقدم المقرفص

من عمي وصافحه بحرارة، كان واضحاً أنه يعرفه، ثم قدمنا عمي إليه، من دون أن يقدمه إلينا.
كان الرجل هو صاحب الدكان الذي لم يكن يحوي، كما بدا لي من وقفتي أمام بابه، سوى مواد غذائية محدودة، معلبات، صابون، زيت نباتي، سجائر، ألحّ الرجل على أن نشرب الشاي معهم، لكن عمي قال إن علينا أن نذهب إلى «درعا»، سلّمنا عليهم ومضينا. لاحظت أنهم ظلوا يتابعوننا بعيونهم إلى أن اختفينا عنهم.
لم يبق في قرية تل شهاب التي ضربتها الرثاثة على نحو يدعو إلى الرثاء سوى عائلات قليلة لا تملك أن تبني بيوتاً في التجمعات الجديدة التي أخذت تنشأ بالقرب من الطريق المؤدية إلى مدينة درعا أسوة بالآخرين.
سيبقى هؤلاء في رجم حجارة على تلة تشرف على واد موحش كان مسرحاً، طلقاً، للثعالب والضباع والخنازير البريّة ذات يوم، وربما لا يزَال، يتدبرون، بصعوبة، الدرجة صفر من العيش : البقاء.
لم تكن زيارتي هذه إلى تل شهاب مدرجة، على كل حال، في برنامج رحلتي الراهنة إلى سوريا، إذ إن ما جئت من أجله، وهو مهرجان السينما، يستدعي مني البقاء في دمشق لا بل قل في «فندق الشام» الذي ينزل فيه، مثلي، سائر ضيوف المهرجان، وتعقد فيه الندوات مع مخرجي الأفلام المشاركة وتعرض في إحدى صالاته معظم العروض السينمائية، فلولا رغبة والدي التي بدت لي ملحة وغريبة، أن نلتقي عند بيت عمي في تل شهاب ولو لأربع وعشرين ساعة لاقتصرت زيارتي على دمشق وحدها.
ولكن حسناً فعل والدي، الذي لم يكن قد مرَّ على آخر لقاء بيننا في الأردن أكثر من ثلاثة شهور، بإصراره ليس على أن نلتقي في تل شهاب فقط، بل على أن يحضر إلى دمشق نفسها في سيارة قديمة لا يمكن الوثوق بأدائها ليقلني إلى تل شهاب. فمن يدري كم من الوقت سيمرّ قبل أن أعود أو لا أعود إلى تلك القرية التي ما زالت شلالاتها تهدر في ذاكرتي حتى لو لم تعد موجودة في الواقع.

## دم سال في شِقّ

كنا في مستهل المراهقة نلهو، إلى جانب استحقاقات تحولاتنا البدنية، باشتقاق بعض الكلمات، وردّ كلمات أخرى إلى أصولها، والمساءلة عن جذر بعض الأسماء.
فوفد مرة إلى حلقتنا هذه صبي سوري كان يكبرنا سنة أو سنتين، فسألنا عن معنى اسم «دمشق»؟ كان السؤال أصعب، على ما يبدو، من بهلوانياتنا اللغوية آنذاك، فعجزنا، فبادر إلى القول إنه مركب من ثلاث كلمات دم سال في شق، فاختصر مع التكرار إلى دمشق.
ولكن ما هي حكاية التسمية؟
هكذا، هتفنا مبهورين بهذا الإشراق المفاجئ الذي رفع الصبي السوري فوقنا درجات، فقال: إن ذلك يرجع إلى عهد سيدنا آدم الذي كان يسكن في ذلك المكان. فاقتتل ولداه قابيل وهابيل، لأن تضحية الأول لم تُقبل، فيما تَقبّل الله تضحية الثاني، فغار قابيل من أخيه هابيل فقتله فسال دمه في شق من شقوق الأرض، فهتف الناس دم سال في شق، وصار ذلك اسماً للمكان مذاك.

هكذا، أسترجع صدى تلك الحكاية ذات الفضاء الأسطوري، وأنا أدخل دمشق بعد نحو خمس عشرة سنة على زيارتي الأخيرة لها.
وقد حرصت أثناء زيارتي هذه إلى دمشق على تعقب حكاية الصبي السوري بخصوص تسمية المدينة فلم أعثر لها، بالنحو الذي صاغها لنا، على سند كتابي، وإن وقعتُ على روايات شفهية وأخرى مكتوبة قريبة منها، أما صياغة الصبي السوري، الذي لا أعلم أين قادته مصائره، لحكايته هذه فهي على الأرجح من قدح خياله، وقد نحتها لتوه ليتفوق بها علينا، وكان له ذلك، فمن منا كان يخطر في باله أن يكون اسم العاصمة السورية متعلقاً بأول دم سال في التاريخ، دم الكائن البشري الأول الذي جندله تحت ضربة شمس الحسد، أخوه، دم ليس له تراث من الألم، ولا يعرف له تسمية بعد، دم بكر، منطوق، يا للغرابة، بكلام عربي، كأن اللغة العربية، احتضنت، في كلماتها الدم الأول والتسميات الأولى.
كنتُ آنذاك، على وعي بقصة قابيل وهابيل، ولكنني ظننتها حدثت في أرض الحجاز، ربما لأنها الأرض الأكثر قدسية في المخيّلة العربية، وربما تسلل إليّ ذلك من القصص القرآني الذي تناول سير الأنبياء.
المهم أن دمشق كانت مستبعدة من ذهني كمسرح لهذه الحكاية حتى وقفتُ على أكثر من سند لها، من بين ذلك كتاب وضعه د. عفيف بهنسي عن مدينة دمشق. ففي هذا الكتاب المصور هناك تقص لاسم دمشق في المصادر الدينية والتاريخية المختلفة، فالمؤرخ ستيفانوس الذي عاش في القرن السادسٍ الميلادي يرى أن هذا الاسم يرجع إلى اسم «دمسكوس» ابن الإله هرمس في الميثولوجيا اليونانية، فيما يرى ياقوت الحموي أنه عائد إلى «دما شق» بن قاني بن مالك بن أزمخشد بن سام بن نوح، وفي التوراة يرد ذكر اسم دمشق على أكثر من لفظة فهي مرة «درمسق» ومرة «دومسق» ومرة «دموسق».
ويرجع معظم المؤرخين الذين كتبوا عن دمشق اسم المدينة إلى أصله الآرامي الذي يعني الدار المسقية أو الـ«دورمسكس»، أي المسك المضاعف، وذلك لطيب رائحتها وعبق جنائنها على ما يبدو، فدعونا نتذكر أن «غوطة» دمشق التي تتضاءل وتقتم خضرتها الآن تحت زحف التمدد المزعج للعاصمة السورية، تبدو كانبثاقة خضراء مفاجئة في محيط أجرد ووعر.
أما في العربية فعدت إلى «لسان العرب» فوجدت الاسم يحيل إلى معنى السرعة والعجلة من الأمر، فحسب «اللسان»، فإن دَمْشَقَ الشيء: زيّنه، ودمشق عمله: أسرع فيه، والدمشق: الناقة الخفيفة، السريعة، ودمشق: جند من أجناد الشام، أو حسب الجوهري هي: قصبة الشام.
لكن الغريب أن ظل الصبي السوري الذي قال: إن الاسم له صلة بأول دم سفك في التاريخ، لم يفارقني وقد وجدتُ أصداء لحكايته الأسطورية عندما علمت بمغارة في «جبل قاسيون» الذي يشرف على مدينة دمشق يروى أنها شهدت قتال قابيل وهابيل تدعى «مغارة الدم».
وقد تواترت حكاية المغارة عند أكثر من إخباري ورحالة عربي، من بينهم الرحالة المغربي العظيم ابن بطوطة الذي قال من مشاهد «جبل قاسيون» : «هذه المغارة التي تدعى «مغارة الدم»، وبالقرب منها «دم هابيل بن آدم عليه السلام»، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثراً مَحَمّراً وهو الموضع، الذي قتله أخوه فيه، واجترّه إلى المغارة، ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين، وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى».

حكاية الصبي السوري تتفق مع ما رواه ابن بطوطة في خصوص هرق الدم في مكان ذي شقوق «صخر، حجر»، عكس ما رواه أبو الحسن الهروي الذي قال: «إن الأخوين اقتتلا داخل المغارة فسال دم هابيل فيها ولم يجترّه أخوه إليها».

لكن لا ابن بطوطة ولا الهروي يجعلان سفك دم هابيل أسساً لاسم المدينة، فدم هابيل ظل، حسب المرويات العربية، اسماً لهذه المغارة إلى يومنا هذا، فمن أين جاء الصبي السوري بتلك الحكاية العجيبة التي تبدو لي الآن كأنها جرت على الألسن كثيراً حتى صقلت واتخذت لنفسها إيقاعاً وسلاسة وقدرة على إثارة المفارقة، فالحكاية كي تملك القدرة على الإقناع ينبغي لها أن تجري على الألسن، أن تكون رويت كثيراً، فهل سمعها يا ترى ثُروى، أم ألّفها على هذا النحو المحكم، في التوّ واللحظة؟ لا أدري.

الذي أدريه أنني أصل إلى دمشق في مساء شتوي، وبين عيني تتراقص صورة الصبي الذي جعلني، بعد ذلك، أفكك كثيراً من المفردات وأردها إلى أصول مفترضة، علّني أحصل على سرِ كيمياء الأسماء والكلمات .. ولكن دون جدوى.

وصف الجامع الأموي

طيلة أيام إقامتي القلقة في دمشق بعيد خروجي من بيروت العام 1982 لم أزر أي «مَعلَم سياحي» من معالم المدينة ولم أكن راغباً أو معنياً بذلك، وها أنني اليوم أقوم بدور «السائح» في مدينة كنت أظن أنني أعرفها فاكتشفت أن ما أعرفه عنها لا يتجاوز نتف حكايات ومشاهد وروايات تاريخية ملتبسة، وأبدأ تجوالي في دمشق من أحد أبرز معالمها وأكثرها تمثيلاً للأطوار الحضارية التي مرّت على المكان، إنه الجامع الأموي الكبير الأثر الأكثر جذباً لزائر المدينة، فليس في عاصمة الأمويين ما يضاهي هذا الصرح المعماري العجيب سواء من حيث الإنشاء الهندسي والجماليات أم من حيث ديمومة الوظيفة، فهو ليس مجرد أثر جميل هجرته الحياة يأتي إليه السياح ليلتقطوا لأنفسهم صوراً في رحابه ليتأكدوا، حين عودتهم، أنهم كانوا في دمشق، وإنما المسجد الذي يحرص زعماء سوريا، على مرّ العصور، على أن يخطب لهم من منبره، إنه الجامع الذي لا بدّ للسلطة أن تستمد منه شرعيتها حتى في ظلّ أنظمتها العلمانية، فمنه تنقل صلوات الجمعة والأعياد وفي حرمه يظهر القادة في الصف الأول من المصلّين، ويعطيك الجامع الأموي بصحنه الكبير وأروقته المتعددة ومنبره، وبكثافة التواريخ المنقوشة على حجره ورخامه هذا الانطباع، يكفي أن تتذكّر أن أقوى خلفاء المسلمين وأرفع رجالات الإسلام شأناً الذين حكموا من دمشق أو الذين أقاموا فيها كانوا يركعون تحت هذا الثقل الباذخ لأطوار التاريخ ومصائره وتمثيلاته المهيبة.

ويمكننا أن نتخيّل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وقد حسم تردده وتغلّب على إحساسه بـ«نقض العهد» فيأمر في يوم من أيام سنة 705م وزراءه ومهندسيه بإنشاء جامع يليق بالمنزلة التي كان عليها الإسلام يومذاك، وعلينا أن نتحلى بخيال واسع يتجاوز ضيق اللحظة العربية الراهنة لنلمّ بشساعة الإمبراطورية التي كان الوليد بن عبد الملك يديرها من عاصمته دمشق فقد كانت «أرض الإسلام» الخاضعة إلى حكمه تمتد من قلب أوروبا غرباً حتى حدود الصين شرقاً مروراً بكلّ العالم القديم. أما لماذا كان

الوليد متردّداً بإنشاء جامع في هذا الموقع بالذات؟ فلذلك قصة .
فعندما فتح خالد بن الوليد وأبو عبيدة الجراح دمشق أُخذ بعض المدينة قوة، وبعضها الآخر صلحاً، وكان قسم من الكنيسة التي يقوم عليه الجامع الاموي اليوم من ضمن المواقع التي شملها الصلح فعمد المسلمون إلى الصلاة في قسمها الشرقي بينما ظل القسم الغربي في يد النصارى الذين استمروا في أداء صلواتهم وشعائرهم جنباً إلى جنب مع المسلمين .
لكن الوليد الذي كان يرغب في إقامة أضخم جامع في عاصمة العالم الإسلامي المترامي الأطراف أعاد بحث اتفاقية الصلح التي وقّعها أسلافه مع النصارى فوجد فيها، على ما يبدو، «ثغرات» تتيح له التحلل من العهد، فعرض على المسيحيين أن يبني لهم كنيسة كبيرة أو يعوّضهم بأي مال يرغبون لكنهم حسب رواية «الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري رفضوا ذلك وتمسكوا بما ينصّ عليه الصلح بينهم وبين المسلمين، فلم يكن من الوليد إلا أن انتزعه منهم عنوة وأشرف بنفسه على هدمه، وكان المسيحيون يقولون: إن من يهدم كنيستهم يصاب بالجنون، فسُمع الوليد يقول: «وأنا أول من يجنّ في الله، وباشر الهدم بيديه فتبعه باقي المسلمين ... لكن القائمين على شؤون المسيحيين لم ييأسوا فأعادوا طرح الموضوع مدعوماً بوثائق الصلح على الخليفة عمر بن عبد العزيز وكاد يمكنّهم من المسجد الأموي لولا هبّة من المسلمين، فعاد وأرضاهم بمال وإقطاعات ويعكس تاريخ هذا المَعْلَم الذي قام على أساسه الجامع الأموي، هو الآخر، أطوار القوة والضعف التي عرفتها دمشق والحلقات الحضارية التي سادت وبادت على أرضها، فأصل الكنيسة هو معبد روماني لجوبيتر الدمشقي أقيم في وقت متوافق مع الميلاد وما زالت بقاياه موجودة حتى يومنا هذا، غير أن معبد جوبيتر، لم يكن هو الأول فقبله، وفي المكان نفسه، كان هناك معبد آرامي، ويقال كنعاني، لعبادة «حدد»، إله العاصفة والمطار والخصب .
إذن لجامع بني أمية الكبير تواريخ متراكبة ومتداخلة وأزمان تتدرج من الوثنية إلى التوحيد تعكس مصائر الأديان والعقائد في تلك الأرض وإن انتهى ليكون واحداً من أكثر آثار الحضارة العربية الإسلامية شهرة وتفرداً وتأثيراً في توجيه طراز المساجد في المشرق والمغرب العربيين، لاحقاً .
هناك حكايات ووقائع طريفة أو ذات دلالة تتعلق بأصل هذا المسجد وبنائه منها أن الوليد بن عبد الملك طلب من أعدائه البيزنطيين أن يرسلوا إليه صنّاعاً وحرفيين ليسهموا في بناء المسجد فأرسلوا له طائفة من الصنّاع والحرفيين يبلغ عددها، في بعض الروايات اثني عشر ألف شخص .
ومن المشكوك فيه أن يكون الوليد قد «أمر ملك الروم» أن يرسل إليه هؤلاء الصنّاع كما يَرد في معظم المرويات العربية، والأرجح أن يكون ذلك جزءاً من التعاون الذي كان ينشأ بين دول وكيانات متجاورة رغم «حالة الحرب» الرسمية بينها، أليس الجامع الأموي بهذا المعنى هو وارث هذا الإرث الباذخ من جدل القوة والمقدس، الأنا والآخر؟

* * *

زرت دمشق أكثر من مرة ولكنني لم أدخل الجامع الأموي إلا مرة واحدة «خطأ» .
كان ذلك في العام 1975 وكنت أعمل يومها، في عمّان، فقررت مع صديق مصري لي يدعى مصطفى

يعمل في «بسطة» كتب كبيرة بجانب مبنى «أمانة العاصمة» أن «نتفسّح» في دمشق ليومين أو ثلاثة .
كان الوقت صيفاً وكنا نرغب بالفرار من «الجفاف الاجتماعي» المريع لعمّان، فكانت دمشق أقرب مدينة إلينا، فلم يكن ممكنا أن نفكر بمدينة صديقي الإسكندرية، وذلك بعد الشقّة وقلة الزاد .
أقمنا لدى وصولنا دمشق في فندق شعبي في «ساحة المرجة» كان مكتظّاً بالبدو والفلاحين السوريين الذين ظهروا كأنهم مقذوفون إلى عالم لا يعرفون كيف يتدبّرون أمورهم فيه، ودمشق كسائر العواصم العربية، هي المركز السياسي والإداري والاقتصادي للبلاد، فكثير من المعاملات الإدارية لا تنجز إلاّ فيها وكثير من الحاجيات والصفقات لا تتم إلا في أسواقها ومراكزها التجارية . هكذا كان معظم نزلاء الفندق الذي نمنا على سطحه قادمين من الأرياف والبوادي لإنجاز معاملة أو للتبضّع .
من «ساحة المرجة»، وهي قلب دمشق الصخّاب، كنت وصديقي ننطلق للتسكع في جنبات المدينة على طول نهر بردى، وكان وقتها ما يزال موجوداً أو في «الصالحية»، أو أبعد من ذلك إلى «باب توما» الذي لم أكن أعرف يومها أن محمد الماغوط قد كتب عنه قصيدة جميلة ومنه إلى «سوق الحميدية» .
كان «سوق الحميدية» الذي يستمد اسمه، على ما أظنّ، من السلطان العثماني عبد الحميد حيث بني في عهده، يفور بالمشترين والسائحين والمتسكّعين «أمثالنا» والسلع من الحوانيت الصغيرة إلى جانبي الشارع، أصوات الباعة ومساومات المشترين وروائح العطور الشرقية، وهفهفة ثياب النساء والظلال السابغة وسط هجير الصيف كل ذلك في مشهد يعكس تقاليد مهن وحياة تحاصرها المدينة العربية الحديثة في جزر معزولة، ريثما تتقرض تباعاً .
ودمشق الشام محظوظة بأنها لا تزال تضم بضعة أسواق لم يزحف عليها «التحديث» العشوائي وإن كان «سوق الحميدية» هو أكبرها وأكملها صورة .
مؤكد أنني لم أفكر بخصوصية «سوق الحميدية» وفرادته لدى زيارتي الأولى له، فكل ما اجتذبني وصديقي، يومذاك، الفرجة، ليس على ما تعرضه السوق من بضائع فقط وكان فرق العمْلة يظهرنا كخليجيين من الدرجة الثالثة.. بل وعلى ما يزخر به من نساء ولاحظت أن «سوق الحميَدية» مكان مثالي لـ«الغَزَل العربي» الذي يقوم على النظرة المتدلّهة، أو التمسيد باليد على شعر الرأس أو القرص أو كلمات الإطراء التي غالباً ما تعبِّر عن الأذى الذي ألحقه جمال المتغزَّل بها بشخص المتغزِّل وستبدو مثل هذه التعبيرات، لمن لم يألفها، كأنها شتيمة أو عدوان على وشك الوقوع، وفي سوق مكتظ بالرّواد كهذا فإن احتمال اللمس أو الاحتكاك اللذين يزعمان العفوية وارد جداً. هذا إلى جانب القرص الذي غالباً ما يمارسه أبناء الأرياف والبوادي بمتعة ضارية .
فإذا وقع الإعجاب «من النظرة الاولى» فإن الاحتكاك غالباً ما يكون متواطئاً عليه. وهو في حالة كهذه، غاية الطلب ومنتهى المراد. اللّهم الا إذا تجاوز الأمر حدود السوق واتخذ لنفسه طوراً آخر خارجها .
هكذا وبينما كنا نتسكّع في «سوق الحميدية» لا ننشد سوى السلوى وتزجية الوقت و «الاحتكاك» وإذ بنا وجهاً لوجه أمام بوابة الجامع الأموي .
كان السوق قد انتهى، فخرجنا فجأة من الظلّ والنداوة إلى ما يشبه الهجير. كانت هناك فسحة صغيرة غير مسقوفة أمام مدخل الجامع، فسحة، تعيد تذكير الزائر بالهجير الذي ينتظره ما أن يبرح السوق .

خلعنا أحذيتنا عند مدخل الجامع ودلفنا إلى صحنه، ومن ثـمّ دخلنا، اتقاء للحرارة، إلى الداخل، وصفا بأجنحة الجامع وأروقته .
لا أتذكر من تلك الزيارة سوى السكينة المهيبة التي تسلّمتنا من العتبة، كان هناك من يطوف بأجنحة الجامع وثمّة من يقرأ في قرآن، أو كتاب أمامه، لكن السكينة هي السيدة، السكينة التي لا تتكرّر الا حيث تخفّ موازين النفس وتنضو عنها مواضعات الخارج واعتباراته .
وها أنذا أجيء لرؤية الجامع الأموي، خصّيصاً هذه المرّة مصحوباً بالكاتبة الفلسطينية المقيمة في دمشق نعمة خالد والزميل منير عبيد مسؤول البرامج الثقافية في الـ B.B.C في لندن ورغم أنني آتي إلى جامع بني أمية كما يأتي هؤلاء السيّاح الذين نراهم يتدفقون في أفواج صغيرة متسلّحين بالعين الفضولية والكاميرا، إلاّ أنّ لهذا الجامع في ذاكرتي صوراً خاصة.
وبما أن زميلتنا نعمة خالد سافرة الرأس ولا تحمل غطاء فقد بقيت في الخارج بينما دلفنا نحن الاثنان من الباب الذي دلفت منه أول مرة .
لا شيء تغيّر، في جامع بني أمية، فرخامه لا يزال يملك تلك اللمعة الكابية نفسها، التي تعنى أن الأيام توالت عليه بتصميم قاس، لا يعرف الكلل. ولا يزال حَجَره الأبيض صامداً للعوادي والزخارف والفسيفساء التي تلاها في أنحاء مختلفة من الجامع وخاصة في الواجهة التي تطلّ على الصحن، لا تزال على حالها... الذي تغيّر هو أنا. زدت اثنين وعشرين عاماً. أقل براءة ودهشة مما كنت وأشد حاجة إلى سكينة الأعماق .
المرة السابقة جئت الجامع الأموي من عمّان واليوم أجيئه من لندن. وبين هذين المكانين انصرم أكثر من عقدين من الزمان انقصم خلالهما ظهر العرب وبلغ أبناء الدنيا العربية مغارب الشمس نفياً وإقصاء ونجاة بالأنفس من مصارع الثورات ومهالك الأحلام .
أدخل الجامع الأموي وتتسلّمني السكينة من الباب. أقف في الصحن الذي تحيط به من جهاته الثلاث أروقة ثلاثة ذات أقواس محمولة على أعمدة مستدقة ربما كانت رومانية الأصل، إضافة إلى حرم في الطرف الجنوبي من الصحن. الصحن فسيح، بل لعلّه أن يكون من أكبر صحون المساجد طرّاً. ويقال: إن هذا التصميم المستطيل للجامع الاموي مماثل لمخطط مسجد الرسول ص الذي أنشأه في المدينة، غير أن الطول في المسجد الأخير هو من القبلة إلى الشمال .
أتقدّم من مدخل الحرم الكبير المفتوح على الصحن وأنظر إلى الفسيفساء الخضراء على واجهته. صور أشجار ونباتات مدهشة الجمال والصنع شبه كاملة، رغم وجود فراغات وتقطّعات في اللوحات تشير إلى خراب لحقها، ولا أدري على ماذا تدل هذه الأشجار، ولكن لا بد أن تكون مما ينبت في البيئة نفسها. وليس بين اللوحات الفسيفسائية المنتشرة على واجهات المسجد وقناطر الأروقة رسم بشر أو حيوان وذلك انسجاماً مع المفهوم الاسلامي للفنّ الذي لا يحبذ تجسيد المخلوقات. وهذا بحدّ ذاته دليل على صلة هذه الفسيفساء ببناء الجامع، أي أنها ليست جزءاً من أصل المكان القديم في عهوده ما قبل الاسلامية مثل بعض المرافق الأخرى خصوصاً الأعمدة .
وهناك في الصحن، أيضاً، قبتان، واحدة تدعى «قبة المال» وهي ترجع إلى العصر العباسي، أما الأخرى

فتدعى «قبّة الساعات» وكانت هناك قبة ثالثة تدعى «البركة» ولكنها أُزيلت .
أما حرم الجامع الأموي فينقسم إلى ثلاثة أجنحة تمتدّ موازية للجدار القديم الجنوبي الذي يحدّد القبلة، على أن ترتيب هذه الأجنحة الممتدة بشكل عرضي من الشرق إلى الغرب ينقطع بجناح أوسط عريض ممتد من الشمال إلى الجنوب يحمل في وسطه قبَّة عالية يطلق عليها اسم «قبّة النسر» ويمتد هذا الجناح حتى المحراب .
أدخل إلى الحرم واتخذ لي مكاناً قريباً من ضريح يوحنا المعمدان أو بالتسمية العربية يحيى بن زكريا... يحيى، كان لي اسم كهذا.. الذي يبدو أنه كان جزءاً من أصل المكان القديم ولم يغيِّر المسلمون من أمره شيئاً. فيحيى هو الذي عنته الآية: «يا زكريا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّا».. هو النبي «الأردني» الذي عمّد المسيح في الجهة الشرقية من نهر الأردن كما تقول بعض الروايات لا في الغربية .
أما في التاريخ فتخبرنا الرواية، أنه أحد الذين بشّروا بقدوم المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) وكان يعمِّد الناس في مياه نهر الاردن ويحضّهم على التمسك بأهداب الفضيلة الأمر الذي أثار حفيظة «سالومي» فأوغرت عليه صدر الإمبراطور الروماني هيرودس فأمر بقتله وقيل: إنّ سالومي أخذت رأسه ودفنته في هذا الموقع .
فهذا ليس سوى ضريح لرأس نبي الماء، ابن بلادي التي تجفّ وتذوي تحت شمس العطش، وبين هؤلاء الذين يطقطقون بكاميراتهم أو يتنقلون بصمت في أرجاء المسجد الفسيح أنا الوحيد، ربما، الذي تستعيد ذاكرته صوراً من الطفولة متعلّقة، خصوصاً بشهر رمضان .
أتذكّر، بخفة خالصة، تلك اللحظات التي يبلغ فيها الصوم ذروته ومذياعنا الكبير المفتوح على إذاعة دمشق يبثّ تواشيح دينية تتغنّى بفضائل الشهر ثم يقطع الغناء الديني صوت المذيع الذي يقول: «والآن ننتقل بكم إلى إذاعة خارجية منقولة من المسجد الأموي الكبير» حيث يكون الشيخ توفيق المنجد بصوته ذي الرنة الطفولية متأهّباً لرفع أذان الإفطار .
لا أدري هل لا يزال الشيخ المنجد على قيد الحياة أم لا ولكن اسمه، على كل حال، كان مرتبطاً في ذهني على نحو لا يمكن فصم عراه برفع الأذان من الجامع الأموي وبفرقته للتواشيح الدينية التي تحتل ركناً أساسياً في حياتنا في شهر رمضان ثمّ تتراجع إلى الظلّ بقية أشهر السنة .
وأظنّ أن صلاة الجمعة والعيدين وسائر المناسبات الدينية الكبيرة لا تزال تنقل من رحاب هذا الجامع الذي استغرق بناؤه عشر سنوات وقيل إنه تكلّف نحو أحد عشر مليون دينار ذهبي من بيت مال المسلمين وشارك في بنائه أبرز المهندسين والحرفيين في إمبراطورية بني أمية يومذاك.. من دون أن ننسى حرفيي الروم وصناعهم .

## ضريح ابن عربي

عندما كنت أسمع في زياراتي المبكرّة إلى دمشق معاوني سائقي الباصات، وهم فتيان غالباً، ينادون

على السابلة بينما يتأرجحون في خفّة، بأبواب باصاتهم: «الشيخ محدّين»، «الشيخ محدّين» لم أكن أتصوّر أن الأمر يتعلق بمحيي الدين بن عربي الصوفي الأندلسي العظيم الذي اقام في دمشق وتوفي ودفن فيها.. وصار احد أوليائها الكبار .

كان «الشيخ محدّين»، الذي ينطق اسمه الشوام مدغوماً بحيث يبدو لسامعه كلمة واحدة، يعني لي، ذلك الحي السكني الذي تصعده باصات «الميكرو» ناقلة ركاباً خليطاً من الموظفين والعسكر والطلبة في أزياء الشبيبة الكاكية. هذه صورة ثابتة في ذهني لطلبة دمشق وطالباتها .. ولكن حتى لو عرفت أن الأمر يتعلق بالصوفي الكبير هذا فما كان سيعنيني كثيراً. فإلى وقت قريب كانت الصوفية تعني، لي، ضرباً من التخريف والشطط العقليين ولا تصلح أن تدخل في «خلطة التراث» التي أعدَّتها، على عجل، الماركسية العربية من بين أربعة عشر قرناً من التراث العربي والإسلامي كي لا تبدو عدمية تماماً أمام جمهورها و«مستوردة» بالكامل من الخارج .

كان أبطالنا التراثيون قلّة يتراوحون بين علي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري والقرامطة.. وَمَنْ شابههم في موقفه من سلطة الخلافة.. وهنا يمكن أن يدخل الجانب الرفضي عند «الحلاّج» وليست صوفيته، موقفه من السلطة لا كشوفاته الروحية، صلبه في قلب بغداد لا «طواسينه» .

والآن بعد أن تم «رد الاعتبار» إلى الصوفية على المستوى الثقافي العربي وتحوّل أدبياتها إلى مصدر من مصادر «الحداثة الأدبية» خصوصاً منذ اقترح أدونيس النّفري على الحياة الشعرية العربية، ينبعث محيي الدين بن عربي من بين ركام العلمانيات والماركسيات والقوميات ليصبح، هو وأقرانه من أقطاب الصوفية العرب والمسلمين، «اكتشافاً» معرفياً عربياً و «ملجأً» روحياً في نهاية القرن.. و «نهاية التاريخ» ..

هكذا يصبح لنداء معاوني سائقي الباصات على السابلة «الشيخ محدّين .. الشيخ محدّين» معنى آخر، صارت للكلمة جهة أخرى تسافر إليها أبعد من ذلك الحيّ الذي تصعده باصات «الميكرو» وهي تئنّ بحملها .

صار النداء يعني «الشيخ الأكبر» صاحب «الفتوحات المكيّة» و «فصوص الحكم» و «ترجمان الأشواق»، أمسى «للشيخ محدّين» صلة بـ «مرسية»، ولدمشق صلة بالأندلس. وغدا معاونو الباصات، من دون أن يدروا، مغمورين بـ«وحدة الوجود». إلى الشيخ الأكبر ذهبت في زيارتي الحالية إلى دمشق، مرتين .

مرة مع الصديق الفنان السوري بشار زرقان والمغني الذي انغمر في الشعر العرفاني العربي القديم واقتفى في الشعر الحديث خيط المواجيد والمواجع الروحية ولوعات الفؤاد .

فقد تنقلّ، زرقان، في غنائه بين أكثر من قمة من قمم العرفان والعارفين من «تهْ دلالاً» لابن الفارض إلى «أبداً تحنُ إليكم الأرواحُ»، للسهروردي المقتول، معرّجاً على الشاعر الأردنيَ طاهر رياض الملوّح، هو الآخر، بأنفاس الصوفية .

مصادفة التقيت ببشار في «النوفرة»، حي يقع خلف الجامع الأموي ويعتبر من مناطق الجذب السياحي في دمشق اليوم لاحتفاظه بطابعه الدمشقي القديم وتوافره على أسواق للحرف اليدوية، ومقاه تعبقُ

برائحة التّنباك العجمي والمعسّل حيث يجد المرء على كراسيّها المتناثرة في الخارج سيّاحاً أوروبيين يشربون الشاي أو القهوة ويدّخن، بعضهم، «الأراجيل» بعد أن يكونوا طافوا في الجامع الأموي وقبر صلاح الدين الأيوبي الذي يقال إنّ الجنرال الفرنسي غورو وضع قدمه عليه عندما احتل دمشق العام 1920 وقال: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

كانت هذه المرّة الأولى التي أرى فيها بشار زرقان بعد أن غادر باريس واستقر، مع عائلته، في دمشق. سألني ما أنا فاعل في التوّ، فقلت له: إنني أنوي أن أزور الشيخ محيي الدين بن عربي اليوم. قال سأرافقك ولكن دعنا نمرُّ، أولاً، على بيت أهلي في حي قريب ثم ننطلق من هناك. كان بيت ذوي بشار يقع في حي يدعى «العمارة» وهو حي دمشقي قديم يتصل اتصالاً عضوياً بالأحياء الملاصقة له التي تشكّل في مجموعها صورة لطراز البناء في الأحياء الشامية الشعبية التي قد تجد لها مثيلاً في مدن عربية عتيقة خصوصاً فاس وغرناطة، بيوت متلاصقة تلاصقاً شديداً، شبابيكها عالية، معظم الطرقات ضيقة ومسقوفة، بالكاد تسمح بمرور عربة صغيرة بل ويتعين، أحياناً، أن تركن العربة في أية فسحة جانبية، كي تتمكن من الوصول إلى حي آخر من خلال طرقات تتسع للراجلين فقط، أحياء هذه المنطقة أشبه ما تكون بالأمعاء الداخلية، لا تعرف أين تبدأ ولا أين تنتهي ملتفّة على بعضها البعض، ليست «النوفرة» وحدها من يحتفظ بالطراز الدمشقي في البناء والحياة اليومية، بل كل المنطقة المجاورة لها، لكن الأولى أكثر سياحية، فرغم أن بيوت هذه المنطقة ليست كلها في حالة عمرانية جيدة إلاّ أنّها ما تزال عامرة بأهلها الذين يعرفون، كما بدا لي من خلال حديثي مع بعضهم، قيمتها الرمزية وأهمية الحفاظ عليها في وجه زحف «الباطون» و«حداثته» الفظّة.

كان لبشار الفضل في تجوالي في «باب السلام» و «حي الجورة» و «القيمرية» التي لا يتوغّل فيها الزائر العابر اليكتفي، عادة، بالوقوف على الأوابد ذات السمعة السياحية. فهناك روايات ترقى بالأحياء المحيطة بالجامع الأموي إلى العصر العموري الكنعاني ثم الآرامي. بل لعلّ المنطقة بأسرها قد أقيمت في محيط معبد الإله «حدد» الذي هو كما ذكرت في غضون هذه الرحلة أحد أسس، بل الأطوار التاريخية الأولى التي عرفها هذا المكان المقدس ليصبح في «ختام» سلسلة المصائر هذه الجامع الأموي.

انطلقنا في سيارة زرقان البيجو «604» في شارع بغداد بالقرب من بيت ذويه إلى «حي الشيخ محيي الدين» المتلطّي في سفح «قاسيون» كان الإزدحام شديداً في وسط المدينة، خصوصاً، في «الصالحية» التي يعتبر «حي الشيخ محي الدين» امتداداً لها.

وصلنا إلى الشارع المؤدي إلى مسجد الشيخ وهو يدعى «شارع المدارس» وذلك لاحتضانه مدارس تاريخية عدّة منها «المدرسة العمرية»، «المدرسة المرشدية»، «المدرسة التكريتية»، «المدرسة الأتابكية»، ولكننا لم نستطع التقدم، أوقفتنا مياه تتدفق من رأس الشارع حيث يقع المسجد، كانت مياهاً غزيرة وموحلة الناس يتقافزون من جانب إلى آخر، يشمّرون عن ثيابهم ويتفادون الخوض في هذه الساقية.

أوقفنا السيارة بجانب بقالية صغيرة يقف وراء دكّتها الخشبية بائع في أواسط العمر يتجاذب حديثاً مع رجل في مثل عمره يرتدي عباءة سوداء مقصّبة الأطراف تحتها دشداشة بيضاء، ويعتمر قبّعة منسوجة تغطي نصف رأسه الحليقة. سألنا الرجل ذا العباءة عن سرّ هذه المياه، فقال: إن أحد الأنابيب

التي تغذي المنطقة بالمياه مكسور بالقرب من الجامع قلنا له: إننا نريد أن نذهب إلى جامع الشيخ محيي الدين فقال: عليكما أن تخوضا في هذه المياه أو أن تجدا طريقاً أخرى إلى المسجد من أسفل الحارة. ووصف الرجل لبشار الطريق الأخرى لكن بشار لم يكن يعرف المنطقة جيداً.

حاولنا، بشار وأنا، أن نذهب مشياً على الأقدام، ولكن ذلك كان صعباً. عدنا إلى حيث يقف الرجل ذو العباءة، في الأثناء انطلق صوت مؤذن رقيق وهش ينادي على صلاة المغرب، قال الرجل ذو العباءة: «يا مرحباً بذكر الله» كان على وشك المغادرة عندما سألنا لماذا نريد الذهاب إلى المسجد، كان مقتنعاً على ما يبدو أننا لسنا من جماعة المصلّين، فقال له بشار إننا نرغب في زيارة ضريح الشيخ محيي الدين، فقال: إنه من الأفضل زيارة الضريح في النّهار، تعالا غداً فربما تكون «الماسورة» قد أُصلحت، قال ذلك ثمّ سلّم علينا ومضى .

عدنا أدراجنا. أخبرني بشار أنه لم يزر ضريح ابن عربي قبلاً وأن هذه كانت فرصة مناسبة. قال: إننا يمكن أن نعود بعد يومين فغداً لدي ارتباط ولن أتمكن من المجيء معك. فقلت له: بعد يومين سأكون في لندن، فليس لدي سوى يوم غد، لا عليك سأتدبّر أمري .

في ظهيرة اليوم التالي كنت في مقهى «البرازيل» أهمُّ بالانطلاق عندما جاءت الفنانة التشكيلية السورية هالة الفيصل وجلست إلى طاولتي. كنا قد دأبنا على اللقاء في هذا المقهى معظم أيام زيارتي الحالية إلى دمشق، لاحظت هالة التي كانت تتدثر بشال صوفي أسود أنني متأهّبٌ، فسألتني عما إذا كنت باقياً أم مغادراً، فقلت لها إنني أريد الذهاب إلى الشيخ محيي الدين، بدا أنها استغربت، فقلت، مستدركاً، محيي الدين بن عربي. فقالت بانفعال: إنها ترغب، ان لم يكن لدي مانع في مرافقتي، فهي لم تزر مقامه، قط . رحّبت بذلك، وانطلقنا من فورنا .

تذكّرني هالة الفيصل بأصدقاء مشتركين منهم الصديق الراحل جميل حتمل الذي عرفني عليها في قبرص العام 1983 حيث كنت أقيم يومها. كانت في مستهلّ عشرينياتها أنوثة وصخباً واشتباكاً مع العالم، تريد الكثير، في عينيها نهم للحياة وشوق لمعانقة الوجود كانت تبدو كأنها خارجة للتوّ من محبس أو كأنها ترى العالم للمرة الأولى. كانت ترتدي عندما رأيتها، للمرة الأولى، زيّاً صيفياً وقصيراً يبرز تناسق جسدها الصغير المشدود وتنتعل صندلاً جلدياً ولها قصة شعر قصيرة تجعلها أصغر سناً مما هي عليه .

كانت ترسم وتريد أن تمثّل في السينما وربما أن تعمل في الصحافة، أيضاً، وقد مثّلت فعلاً. أخذت أدواراً أولى في أفلام سورية ولا أظنّ أنها عملت بالصحافة ولكن من المؤكد أنها أصبحت فنانة تشكيلية مميّزة وصلتني أصداء معارضها إلى لندن. منذ لقاءاتنا في الصيف القبرصي الحار العام 1983 لم نلتق مرّة أخرى. في الأثناء تغيّرت أشياء كثيرة في العالم ومسّنا التغيير، نحن، أيضاً، عمقاً وسطحاً لم نعد نملك زهو العشرينيات وتفجراتها على غير صعيد، مرّت هالة الفيصل، كما عرفت من صديق مشترك، بظروف حياتية صعبة، خيبة رهانات شخصية، انكسار أحلام جعلتها تتراجع على ما يبدو، إلى مربّعها الأول، ذاتها .

هذا يمكن ملاحظته ليس في سيمائها التي بدت لي هادئة، تعكس سلاماً مع النفس ولكن في لوحاتها.

فالشخص الحاضر، دائماً، في معظم اللوحات التي أرتني إياها في شقتها الصغيرة في أحد أحياء دمشق الراقية، هو شخصها في أشكال وصور عدّة أظنّ أنَّ وجود شخصها في أعمالها هو نوع من تحليل الذات ومحاولة لفهم صورها المتعددة أكثر مما هو تمركز على الذات أو عبادة لها .

كانت السماء غائمة والجو بارداً أكثر مما كان عليه في الأيام القليلة التي مرّت عليَّ في دمشق، كان يبدو أنها ستمطر في أية لحظة. وهي لم تمطر حتى الآن رغم أننا في تشرين الثاني، أوقفنا سيارة أجرة. ما أكثرها في دمشق هذه الأيام، بالقرب من المقهى وقلنا له: إننا نريد أن نذهب إلى مسجد الشيخ محيي الدين ولكن ليس من خلال «شارع المدارس» فأوصلنا إلى أقرب نقطة من المسجد لجهة الجنوب. كانت هناك طريق ضيّقة بين صفين من البيوت ذات درج إسمنتي صعدناها حتى وصلنا إلى المسجد، كانت «الماسورة» قد أصلحت ولكن بقايا المياه لا تزال تشكّل بركاً في الشارع المحفَّر.. المجوَّر، ولكن مع ذلك فالناس يروحون ويجيئون بهمّة ونشاط . يُفاجأ زائر مسجد الشيخ الأكبر وجود سوق كبير بالقرب منه ويرى أمامه باعة خضر الموسم وفواكهه، وعلى الأخصّ البرتقال والرمّان، ينادون على بضاعتهم، واللحّامون يعلقون ذبائحهم في كلابات في مداخل حوانيتهم وروائح الشواء تفوح في الجوِّ، تختلط بروائح التوابل والأفاوية التي تنبعث من محال العطارة .

سوق كامل يرفع قواعده ويطلق أصواته وروائحه أمام مسجد الشيخ محيي الدين وبالقرب منه. حياة متصلة الهرج تنبض في محيط «الشيخ الأكبر» ليس مسجد الشيخ محيي الدين (ولا ضريحه) آبدة انقطعت عنها الحياة ولا أثراً معزولاً، إنه في صميم الحياة الشعبية الدمشقية يحيا حياتها ويعيش إهمال البلدية ذاته الذي تعيشه هذه الأحياء، مع أن الشارع الذي يقع فيه المسجد هو أحد أشهر شوارع «الصالحية» التاريخية بل أشهر شوارع العلم في القرون الوسطى «شارع المدارس» الذي يقال: إن مؤسّسيه هم بنو قدامة المقدسيون الذين هربوا إلى دمشق بعد سقوط القدس بيد الصليبيين والمذابح التي ارتكبوها بحق أهلها. فصار أكبر موئل للعلم في زمانه، سلسلة كليات وجامعات بمقياس زماننا يضمّها شارع صغير لم تنقطع عنه الحياة يوماً، إنه الشارع ذاته الذي قصده في يوم من أيام العام 1223 ميلادية متصوّف ومتفلسف أندلسي ذائع الصيت يدعى محمد بن علي الحاتمي المعروف بلقب سيصبح ذا رنين كوفي هو «محيي الدين بن عربي» ليقضي فيه السنين السبع عشرة الأخيرة من حياته وليدركه الأجل ويدفن فيه عن عمر يناهز 75 عاماً .

سوية أرض الجامع أخفض قليلاً من سوية الشارع المقابل له، ننزل درجات قليلة إلى صحن الجامع ذي البلاط المكسّر في بعض جوانبه فنجد خادم المسجد «يشطف» مياهاً متسربة إلى الصحن، نخلع أحذيتنا ونطأ أرضاً وطأها قبلنا مؤمنون ومريدون وملتمسو بركة أو سكينة أو فضوليون، كانت الحصر القديمة شبه البالية مرفوعة على دكّة بجانب الصحن الذي يمكن للملاحظ أن يرى التوسعة التي طرأت عليه، فالقسم الخلفي من الصحن ينهض على أعمدة ذات تيجان كورنثية عكس الأعمدة الأمامية الحديثة، وليس غريباً وجود أعمدة تعلوها تيجان كورنثية رومانية الطابع، فكثير من الأوابد الإسلامية، ومنها الجامع الأموي كما سبق الذكر، تستخدم حجارة وأعمدة من أوابد سابقة عليها، القديم يدخل في الجديد ويعطيه شيئاً من حياته ولكنه لا يتخلّى عن حياته السابقة، الرموز تنتقل من مكان إلى آخر ولكنها لا

تندثر هناك، دون شك، حجارة اقتطعها الحجّارون خصيصاً لهذا المسجد العثماني ولكن هناك حجارة أعمدة نقلت من أوابد أخرى وتمّ تحويلها لتناسب حياتها الجديدة .
والحجارة شاهدة أبداً على التحولات، الحجارة تبقى ويزول الذين أعطوها سمتاً ووجّهوها وجهة أو زوّدوها بالرموز ولحسن الحظ فإن التاريخ يحفظ لنا، هذه المرة، اسم المهندس المعماري الذي صمم مسجد «الشيخ الأكبر»، على عكس كثير من روائع البناء الإسلامي، إنه المهندس الدمشقي شهاب الدين العطار، ليس ذلك مسطّراً على لوحة المسجد التي تحمل اسم السلطان العثماني سليم الأول الذي أمر ببنائه العام 1518 لينتهي العام 1524، ولكن اسم المهندس ورد في أكثر من أدبية أرّخت للجامع وفترته .
ندلف إلى الجامع فتغطي هالة الفيصل رأسها بشالها، ليس الجامع كبيراً ولا هو استثنائي الطراز، بل يتميّز بالبساطة، إن لم أقل بالتقشف الجمالي .
فهو يتكوّن من رواقين بينهما عدد من الأعمدة بعضها من الحجر الغرانيتي وبعضها من الحجر الأبيض، الحجر الغرانيتي أو المسمى زرزوري نُحتَ خصيصاً للمسجد، على ما يبدو، بينما هناك أعمدة اجتلبوها من بناء النائب الشامي جان بلاط في منَطقة اصطبل «دار السعادة»، وكان بلاط قد اجتلبها، بدوره، من تربة في منطقة العقبة العتيقة .
وتنهض على الأعمدة عدّة قناطر، مكونة من الحجر الأبيض، والبني، ويتدلّى من السقف بضع ثريات مختلفة الأشكال والأحجام مربوطة بزرد حديدية تظهر أشرطة الكهرباء بين بعضها، فضلاً عن المراوح التي يستعان بها على حرّ صيف الشام المشهود .
أما أرضية قاعة الصلاة فمفروشة بقطع من السجاد متباينة الأشكال والأحجام والأصول، كما هو حال الثريّات، يغلب على الظنّ، أنها والثريات، أيضاً، من تبرّع المريدين والملتمسين بركات «الشيخ الأكبر» وهم كثر، فلا ينتظمها ذوق أو حجم أو منشأ واحد ويدل مظهرها على فقر ورثاثة يستغرب المرء وجودهما في هذا المعلم الجاذب للمريد والسائح العابر من أربعة أركان الأرض، فقر ورثاثة يعكسان إهمالاً أكثر مما هو تواضع وبساطة .
وبما أن موقع المسجد كان يحاذي نهر يزيد أحد أنهار دمشق الصغيرة الذي لم يعد له وجود، فهناك في الجهة الجنوبية أربعة شبابيك مستطيلة الواحد منها بقامة رجل أو أعلى، وفي القسم العلوي من الجامع العدد نفسه وواحد ينفتح على الشرق .
ليس مقام «الشيخ الأكبر» داخل الجامع بل ملاصق له وتعلوه قبّة خضراء، فمن الجهة الشرقية للجامع ثمة درج يهبطه الزائر ليصبح داخل المقام .
ويبدو أن الدخول إلى ضريح ابن عربي كان يتم بُعيد الفترة التي بني فيها المسجد والمقام من داخل المسجد نفسه وليس من صحنه الخارجي، فهذا متصوّف دمشقي معروف وأحد المنافحين عن «الشيخ الأكبر» عبد الغني النابلسي يذكر في كتابه «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز» أن الباب المفضي إلى المقام من داخل المسجد يعرفه قليل من الناس . وكان الزوّار يدلفون إلى الضريح من هذا الباب لكنَّ القيّمين على المسجد وجدوا حرجاً في إغلاق باب الضريح داخل المسجد فعمدوا إلى استخدام

باب خارجي يمكن فتحه وغلقه بشكل مستقل .
هبطنا، هالة الفيصل وأنا، إلى ضريح ابن عربي وكان خادم الضريح يقف في الباب فتنحّى لنا، رأينا بقرب الضريح امرأتين وشابة صغيرة، يد إحداهن، وهي الأقرب إلى الشابة، تلامس الضريح ويبدو من الهمهمة الصادرة منها أنها تطلب شفاعة أو تدعو في سرِّها، كانت النسوة الثلاث يرتدين «إشاربات» على رؤوسهن على عكس معظم النسوة، الفتيات، خصوصاً، اللواتي رأيتهن قبل سنوات يتبركن بضريح مولاي إدريس بمسجد القرويين في فاس القديمة، يومها استغربت سفور النساء في قلب واحد من أقدم جوامع العالم الإسلامي وأعرقها .
جلسنا غير بعيدين عن النسوة الثلاث اللواتي يبدو من هندامهن شبه البيتي والألفة التي تطبع جلستهن حيال المكان أنهن لم يجئن من قصيّ بل لعلهن من سكنة الحي نفسه وجدن وقتاً في هذه الظهيرة التي يكون فيها الرجال في أعمالهم والأطفال في مدارسهم لزيارة «الشيخ الأكبر» لأمر يخصّ إحداهنّ، لعلّه أن يكون للشابة الصغيرة .
على كل حال لم يكن يبدو على سحَنهنّ أنهن، أو إحداهنّ، مبتلاة ببلاء ما أو مصابات بمصيبة، فلا قلق في السمت ولا ضراعة في الدعاءَ أو َالرجاء، لعلها زيارة تبرّك روتينية .
فخلال الساعة أو نحوها التي قضيناها داخل المقام جاء عدد لا بأس به من الرجال والنساء، كان بعضهم يدعو في سرّه أو يقرأ ما تيسّر من القرآن الذي توجد منه نسخ مختلفة في «مكتبة» صغيرة في المقام أو يصلي ركعتين ويمضي، ليس ثمّة دهشة أو غرابة في السلوك مع المكان، ليس ثمّة القصد الذي أجيء به، فأنا أجيء من الثقافة، من «إعادة اكتشاف» ابن عربي وهم يأتون من مألوف العادة، من كون ابن عربي جزءاً من محيطهم وحياتهم اليومية .
لا أدري بماذا كانت تفكر هالة ونحن نجلس عند رأس ابن عربي لكن أمام عينيَّ امتدت خارطة كبيرة ومتشعبة قطعها هذا المثقف الأندلسي الكبير المتعدد المواهب والأعطيات إلى أن انتهى به المقام في سفح «قاسيون» .
من مرسية ومدن الأندلس الكبرى التي كانت تسّاقط تباعاً بيد الإسبان إلى حواضر الشمال الأفريقي، ومن القاهرة إلى بغداد والموصل، ومن حلب إلى قونية، ومن مكة ... (التي سيصاب فيها بضربة شمس «النظام») إلى دمشق التي انتهى إليها أمره .
داخل هذه الجغرافيا الإسلامية المفتوحة كانت تمور مذاهب وعقائد وتصوّرات للخليقة والخالق لم تكن على وفاق مع الإسلام السنّي الحاكم بل كان بعضها، وخصوصاً الصوفية، يصل إلى حدّ التفارق باطناً مع التأويل السائد للدين رغم التشبّث بطقوسه وشعائره، وفي قلب هذا التفارق تقع صوفية ابن عربي خصوصاً مذهب «وحدة الوجود» الذي ينسب إليه، وتحمله إلينا تفسيرات متباينة هي الأخرى، فمنها ما ترده إلى «قويم» الدين وتجعل له مخرجاً سُنّياً أصيلاً ومنها ما تخرج به من هذا الدين وتضعه في أرض الحلولية والكفر .
ولكن هذه الجغرافيا الواسعة، الرحبة رغم تشرذمها السياسي المريع، كانت تقبل ابن تيمية في فهمه الأصولي، النقي، المتشدّد للدين، وابن عربي الذي تتساوى لديه العقائد والأديان كلّها، كان فيها للعرفان

مطرح وللبرهان مطرح، للسني الحاكم باسم قويم الدين وأصيله مكان وللشيعي المعتصم بآل البيت والباكي على مصائرهم أبد الدهر موقع، لليهودي كنيسه وأسفاره وللمسيحي كنيسته وأناجيله وصليبه الذي «سال عليه دم المسيح» كان هناك الصابئي الذي تذكر علاقته المقدّسة بالماء بيوحنا المعمدان، والأزيدي الذي تربطه الثقافة الشائعة بعبادة الشيطان، عدا ملل ونحل ومذاهب صغيرة تمكّنت من الحفاظ على وجودها عبر القرون على شكل فسيفساء معقّدة ترصّع صفحة شرق الآلهة والأنبياء والعقائد والأساطير .. والفتن .

لا أريد أن أرسم صورة وردية لهذه «الجغرافيا الإسلامية» فلم يكن وجود «الأقلي» فيها معترفاً به تماماً مثل «الأكثري» ولم يتمتع بالحقوق نفسها، ولكنه، على كل حال، كان قادراً على ما هو أكثر من مجرد البقاء، كان موجوداً .

فكم تبدو الجغرافيا التي عاش فيها ابن عربي وحاول أن يبثّ في أرجائها «دين الحب» أكثر رحابة وتسامحاً من الجغرافية الإسلامية الراهنة، مع العلم أن «الشيخ الأكبر» عاش في ظلّ بداية تفكك الإمبراطورية الموحدية في المغرب العربي والأندلس ما أفضى إلى تساقط اثنتين من مدن الأندلس الكبرى هما «قرطبة» و«بلنسية» وزحف المغول على المشرق العربي وتدميرهم بغداد وقضائهم على الخلافة العباسية، إضافة إلى تواصل الحروب الصليبية في بلاد الشام .

إلاّ أنه رأى وجال وعاش وأحبَّ، خفَّت موازين التعصب لديه ومال إلى الحب رحاباً يدخلها البشر بقلوب خافقة وأرواح رهيفة، وأقدام مضيئة تطير إلى العناق والضمّ حتى الانصهار والوحدة .

يحلو لي أن أتصوّر الأمر هكذا .

يحلو لي أن أرى ابن عربي في هذا السمت، فوق العنصر والفهم الضيّق للعقيدة، فوق الجهة والملّة وفوق الدين بما هو اطمئنان إلى حقيقة واحدة جامعة مانعة، بما هو مجرد إجراء يحفظ الجانب الطقسي، الشعائري الذي تتمسك به الكثرة وتحرص عليه وتعتبره الدليل الوحيد على الدين ويغفل عن الجانب الرمزي والمجازي له .

حتى هذه الزيارة لم أكن أعرف الكثير عن ابن عربي، فما قرأت له وعنه كان شظايا ونتفاً ومجتزآت وما أعرض له، هنا، من أفكار وآراء ومعلومات تتعلق بابن عربي إنما وقفت على معظمها بعد الزيارة، لكن هذه الزيارة – السياحة لم تكن لتتم لولا أنني صرت قريباً من أرض «الشيخ الأكبر» قرباً لا أستطيع تحديده الآن، لا أظن أنني مهيأ لدخول تلك الحمى .. وقد لا أكون . فلم تنته حربي على الحيز والمكانة والمنفعة ولمّا تزل نفسي مليئة بالهوى والغضب والشهوات ولا يذهب إلى تلك الحمى امرؤ بنفس طافحة بهذه الكثافة الحسيّة التي من طينها جبل الانسان . الإنسان الذي تميّزه كثافته العجيبة هذه عن باقي الكائنات، لذلك أُطلُّ على تلك الحمى من مبعدة، أُطلُّ وأظلّ بعيداً تثقلني كثافتي التي لا أفعل لها شيئاً لاطمئناني، ربما، إلى آدميتها، طبيعتها .

قد يحتاج الأمر إلى استعداد خاص لولوج تلك الأرض التي تخفُّ فيها الأنفس أو ربما، إلى إقامة طويلة في الصبر والضنى والبلوى . وأنا لست صبوراً ولم أصب بمصيبة وما عرفت البلوى، كما أنني لست مقدوداً من معدن المقيمين، والأرجح أنني عابر أتلبّث هنا أو هنا ولكنني لا أطيل المقام .

وليس العابر كالمقيم .
ميلي إلى ابن عربي ميل ثقافي مطيّف بظلال من الفضول الروحي إذا جاز التعبير . ويتراءى لي أن الاهتمام المتزايد الذي تبديه الثقافة العربية والمثقفون العرب بإعادة قراءة التراث الصوفي العربي – الإسلامي، وفي قلبه ابن عربي، إنما يتم على أرض الخيبات الأيديولوجية والانكسارات السياسية التي تسم العقدين الأخيرين من قرننا هذا .
وإذا لم يكن من العسف أن يربط المرء ظاهرة ثقافية وفكرية ما بحدث أو لحظة تاريخية بعينها فإنني أحيل «إعادة القراءة» هذه إلى سقوط بيروت بيد الإسرائيليين 1982 وانهيار «الدولة الاشتراكية» بعد ذلك بنحو ثماني سنين، ما كشف الغطاء عن الثقافة العربية العلمانية وعرّاها أمام نفسها قبل أي شيء آخر، لأن القسم الأعظم، الأكثر حراكاً في هذه الثقافة كان يدور في فضاء التحرر الوطني والاجتماعي ذي الجذور الماركسية .
ومن الواضح أنني أشير إلى أمرين متلازمين، هزيمة فكرة التحرر العربية بمعناها الكفاحي الذي مثّلته الثورة الفلسطينية وانهيار فكرة أو تطبيق إقامة المجتمع الاشتراكي .
والأمران ينهلان من معين علماني، كوني الطابع، ليس فيه من «جذور» الذات و«خصائصها» ما يكفي لإبقائها واقفة على قدميها في لحظة العصف هذه، فإعادة قراءة التراث أو «اكتشاف» الصوفية، بهذا المعنى، كأنهما إعادة اكتشاف للذات نفسها، لما يجعل لها جذوراً في العالم ويسند وجودها على أرض تسحب من تحت أقدامها وتتركها على هامش الفعل الحضاري .
هل أحتاج لأذكر هنا بتصاعد الحراك الديني لـ «ملء الفراغ» الذي خلّفه انسحاب الأيديولوجيات العلمانية إلى الهوامش؟
بيد أنني لا أربط، تماماً، بين بروز الفكرة الدينية وبين «إعادة قراءة» التراث الصوفي أو «إعادة اكتشافه» فالمشترك بين الأمرين، بالعمق، ليس كبيراً إلى هذا الحدّ، بل لعلهما يقفان في جوانب عديدة في مواجهة بعضهما البعض فالفكرة الدينية السلفية المتشددة التي تسيطر على الشارع العربي والإسلامي اليوم ترى في الصوفية تخريفاً وشططاً عقائديين ودعوة إلى اعتزال الصراع .
ورأي مرجع السلفية الكبير ابن تيمية في الصوفية، عموماً، وصوفية ابن عربي خصوصاً معروف، فهو يكاد يخرجها من الإسلام تماماً واضعاً ابن عربي، من خلال تفسيره مذهب «وحدة الوجود» في خانة قريبة من الحلوليين الذين يقولون: إن الموجودات (العالم)، هي الله والله هو الموجودات نفسها وأن لا فرق بين الخالق والمخلوق، والرّب والمربوب .
ليس الاثنان، إذاً، شيئاً واحداً حتى وإن قالا بالإسلام .
فكم من إسلام عرفته تلك اللحظة وكم من إسلام لا يزال يشحن نفوس أنصاره حتى اليوم؟؟
فلا يجمع الإسلام، إذن، ابن تيمية وابن عربي إلاّ في إطاره الثقافي العريض أتساءل هل اقترابي من ابن عربي مختلف عن «المقاربة الثقافية» لتراثه؟
يتهيأ لي أنها تختلف قليلاً، لا أزعم أنها مقاربة روحية خالصة ولكنها لا تخلو من «الفضول الروحي» .
وإلا ما الذي جاء بي إلى ضريحه؟

## دين الحبّ

تجذب قارئ ابن عربي اليوم أفكار كثيرة ابتدعها أو طوّرها «الشيخ الأكبر» على مدار مشواره الطويل، منها فكرته عن الرّحمة والتّسامح ووحدة الوجود .. وبشكل خاص عن الحبّ، تلك الفكرة التي لا تطرد من فضائها الواسع حتى الوصال نفسه لا تلقي بأشواق البشر وأنينهم خارجاً، فالوجود عنده متعلّق بالرحمة، وبين الرّحمة والرّحمن نسب ووشائج ليس أقلّها النسب اللغوي، والرحمة ليست خاصة بأحد دون آخر ولا بشيء دون شيء، بل هي رحمة شاملة، تسع كلَّ شيء وتطوي تحت جناحها الموجودات كلّها، فالرحمة والتراحم بين البشر هي من خصائص «الحقّ» فبالرحمة يتخلق الإنسان بصفة الإله، فالرحمة عند ابن عربي، وكما يشرحها محقّق وشارح «فصوص الحكم» أبو العلا عفيفي، ليست الشفقة على البشر ولا غفران معاصيهم وإنما يقصد بها النعمة السابغة التي أسبغها الله على الوجود بأسره، إنها بتعبير عفيفي: «منح كل موجود وجوده الخالص» وإظهار حكمها فيه بإظهار الصفات التي يتميّز بها كل موجود عن غيره .

ويربط ابن عربي بين اسمي «الله» و«الرحمن» في إطار فهمه للرحمة، فالله هو الرحمن لأنه يتجلى بوجوده على كل موجود وتجلّيه هذا هو رحمته التي يرحم بها هذا الموجود . ولا تعرف الرحمة عند الشيخ الأكبر الغرض أو الملاءمة أو الانتفائية . فالخير والشرّ أمران اعتباريان لا دخل لهما في الأفعال من حيث هي، والرحمة تتوجّه إلى إيجاد الأشياء والأفعال من حيث هي، فهي بهذا المعنى، مرادفة للمشيئة الإلهية .

يقول ابن عربي: إن «المحجوبين» يسألون «الحق» أن يرحمهم في اعتقادهم أما «أهل الكشف» فيسألون رحمة الله أن تقوم بهم . أن يصيروا راحمين لا مرحومين . ولا أستبعد وجود وشيجة بين الرّحمة والخلق نفسه . فإذا كانت الرحمة ذات صلة لغوية بـ «الرحمن» وهي من صيغ المبالغة والتكثير، أفليس من الممكن أن تكون لها صلة بالرحم، أيضاً . رحم الأنثى التي تكوّن فيها الإنسان . بيته الأول! فللكلمتين مصدر لغوي واحد . والرحم أيضاً، النسب والقرب . وإذا كانت الرحمة هي بيت الإنسان الأول فيها تخلّق ومنها انحدر فإن الحبّ هو، أيضاً، نوع من رحم معنوية . فلولاه لما وجدت الموجودات من العدم . هذا ما يراه ابن عربي، فهو يرقى بالحبِّ إلى مستوى الأساس الأول للوجود . فالله خلق خلقه لأنه أحبهم، لا لأنهم ضروريون له، لأنه أراد أن يُعرف بهم ..

ويؤسّس «الشيخ الأكبر» الذي قد يكون الوحيد بين أقطاب الصوفية الكبار الذي وضع ديواناً شعرياً كاملاً في الحب هو «ترجمان الأشواق»، مملكة للحب على الأرض، بل إنه يجعل الحب ديناً وعبادة .

أما بخصوص فكرته عن الحب وكونه أصلاً لهذا الوجود، تياراً يسري في أوصاله فتلحظ د. سعاد الحكيم الباحثة اللبنانية المختصة بتراث ابن عربي ثلاث رتب للحب عند «الشيخ الأكبر» هي «الحب الطبيعي» وهو حبٌ حسي ينصرف إلى الجسد والتلذّذ به من دون أن يكون معنياً بالنفس هو حب جسدي، حبٌ يحبه المحب لذاته، لملذاته لا لنفس المحبوب فيحضر فيه طرف ويغيب طرف، يحضر فيه

الفاعل ويغيب فيه المفعول به .
والرتبة الثانية هي «الحب الروحاني» وهو ارتقاء درجة أعلى في سلك الحب وسلّمه .. هنا يسعى المحبُّ في نيل رضا محبوبه ولا يبقى له منه غرض ولا إرادة فلا تنصرف هذه الرتبة من الحب إلى الجسد، فقط، بل إلى الجسد والنفس، معاً، إلى الانسان كوحدة واحدة لا فصل بين الحسّي والمعنوي فيها . لذلك فإن الحب الروحاني يتضمن الحبَّ الطبيعي، يحتويه ولكنه يرقى به درجة أعلى، ويتطلب هذا الطراز من الحب اتحاداً بالمحبوب جسداً وروحاً، تلاحماً كاملاً، تداخلاً وتطابقاً، تماهياً يلغي الإثنية وينتفي فيه الفاعل والمفعول به بحيث تصبح «ذات المحبوب عين ذات المحبّ وذات المحب عين ذات المحبوب» بحسب تعبير ابن عربي .
أم الرتبة الثالثة فهي «الحب الإلهي» وهذا حب روحي خالص لا يبين له أثر على جسد الإنسان وروحه . ويمكن للإنسان أن يحبّ إنساناً آخر حباً إلهياً ولا يبعد عن ذلك حب ابن عربي نفسه للصبية الأصفهانية «النظّام بنت مكين الدين» التي لقيها في مكة وكان يومها شيخاً وعلماً، وهو حب بسط أشواقه ومكابداته في ديوان «ترجمان الأشواق» رغم أنه يحمله في شرحه للديوان، على وجه الحب الإلهي الصرف الذي لا تخالطه مسحة أرضية . فهو يكني عن حب النظام بحب الخالق، وهذا أمر له مطرحه في صوفية ابن عربي، فنحن حتى وإن كنا نحبُّ شخصاً بعينه له اسمه ونسبه وحضوره الجسدي فإنما نحبُّ الله في صورة ذلك الشخص .
للحبّ، إذن، منزلة كبيرة في مذهب ابن عربي، والحبّ، بالعودة إلى «فصوص الحكم» هو علّة خلق العالم، وهو الأساس الذي يقوم عليه الوجود . إنه يتخلل كل ذرة من ذرات العالم ويدفع بكل شيء إلى الظهور بالصورة التي هو عليها . فنحن على ما نحن عليه بسبب الحب الذي هو علّة وجودنا . الحب هو مبدأ الوجود وأصل كل موجود، وهو، عند الصوفيين، السبيل الوحيد لمعرفة الله والتحقّق بالوحدة معه . الحبُّ عند ابن عربي هو دين بذاته، بل هو الدين العالمي الذي يدخله البشر أجمعين كلٌّ بحسب همّته .
أفليس ابن عربي القائل:

أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني .

* * *

لم نتحدث، هالة الفيصل وأنا، عند مغادرتنا ضريح ابن عربي وخروجنا إلى سماء دمشق الشتوية سوى عن الخوف الذي ألمَّ بخادم الضريح عندما رآني أدوِّن شيئاً على دفتر ملاحظاتي . سألت الرجل المنقطع لخدمة الضريح أسئلة تتعلق بالأشخاص المدفونين إلى جانب ابن عربي وعن طبيعة الزوار الذين يأتون إليه وعمّا إذا كانت تقام حلقات ذكر في المسجد، فكان الرجل يجيبني بانطلاق قبل أن أرتكب حماقة إخراج دفتر الملاحظات من جيبي وابدأ في تدوين كلامه، لحظتها توقف خادم الضريح عن الكلام وأشاح بنظره عنّي ولم ينفع في شيء قولي له أنني أود أن أكتب تحقيقاً صحافياً عن ابن عربي ومقامه،

فلم يعد الرجل للكلام معنا .
ولكنه قبل ذلك كان قد أخبرنا قصة طريفة تتعلق بدفن خادم الضريح الأسبق بجانب قبر ابن عربي أسوة بابني الشيخ الأكبر، سعد الدين وعماد الدين، والشيخ عبد القادر الجزائري الذي نقلت رفاته إلى الجزائر بعد الاستقلال، فخادم المسجد أبدى رغبته، وهو يحتضر، أن يدفن في الضريح الذي صرف عمره في خدمته، قال الرجل: إنه رأى ابن عربي في المنام وأمره أن يبقى قربه، لكن ليس كل من يبدي رغبة بأن يدفن في تربة ابن عربي يستجاب له، فالضريح صغير ومكتظّ، على أي حال، بالراغبين في جوار الشيخ الأكبر، فهناك إلى من ذكرتهم من قبل شخصيتان أو ثلاث شخصيات عثمانية، هذا فضلا عن أنّ القائمين على الضريح، لم يهضموا، على ما يبدو، فكرة دفن خادم الضريح بجوار ابن عربي مهما كان تفانيه في خدمته .
فبعد أن صُلّي على جثمان خادم الضريح وهمَّ المشيعيون بإخراج النعش من المسجد ليصار إلى دفنه في مقبرة قريبة استدار النعش على أيدي المشيّعين باتجاه الضريح . وعبثاً حاول المشيّعيون أن يوجهوا النعش إلى الخارج، فكلما فعلوا ذلك استدار النعش إلى الجهة الأخرى، إلى حيث يرقد ابن عربي .
ولم يجد المشيِّعيون، أمام هذا الأمر الخارق، إلاّ أن يلبوا رغبة خادم الضريح فدفنوه بجوار ابن عربي، وقد أرانا خادم الضريح الجديد قبر الخادم الأسبق .
وإذا لم يعهد عن ابن عربي، الذي كان يوصف بـ «فيلسوف الصوفية» خوارق مسلكية أو الاهتمام بهذا النوع من الخوارق فإن خادماً لضريحه سجّل خارقة أمام الملأ بعد سبعة قرون على وفاة «الشيخ الأكبر» .
أمشي مع زميلتي الفنانة التشكيلية السورية التي لم تكن أقل مني تأثراً بالسكينة التي عليها ضريح ابن عربي في «شارع المدارس» الضاجّ بحياة الأرض وروائحها، بقيمها ورموزها، بقليل الشأن وعظيمه بالنسبة للناس .
السماء غائمة، المطر الذي يُبتهل له في بلادنا قد بدأ بالتساقط .
أرض الشارع الذي لا بد أن تكون سلكته قدما ابن عربي مراراً ما تزال مبتلّة تماماً بفعل «الماسورة» المعطوبة والمطر . بزيارتي ضريح ابن عربي تنتهي هذه «السياحة» المقصودة في محروسة دمشق لتبدأ ملامح «سياحة» من نوع آخر . أتصوّر أنّ اهتمامي بصاحب «الفتوحات المكيّة» لن يتوقف عند حدود ضريحه ونتف من سيرته وفكره»، فأغلب الظنّ أنّي سأذهب أبعد من ذلك .
ولكن إلى أي حد .
لا أعلم .

---

* شاعر أردني يقيم في لندن، المحرر الثقافي في صحيفة «القدس العربي» – لندن.

(1) مخيم للاجئين الفلسطينيين يحمل اسم «مخيم جرمانا»، إحدى ضواحي مدينة دمشق .
(2) سيران: مفردة شامية تعني نزهة.

## يتيمة الدهر: خواطر ويوميات

سيف الرحبي*

قافلة تسير في ليل دامس، من غير حداء ولا دليل ولا كلاب تنبح، جنازة الليل الكبرى تمخر عُبابَ الزمن.

*      *      *

في وقت من أوقات الغروب، ينفجر فيه قلبُ النيازك مشعلةً حرائق في السماء، تصفيةً لحساب قديم، جراحاً لا تشفى.

*      *      *

عند مجرى مسيل قديم، شاهد لأول مرّة عينين تنطفئان في الظلام. كان ذلك أول إشارة موت في جبل الوقائع والإشاراتً الذي غصت به حياته اللاحقة.

*      *      *

يقرأ المسافر في خطواته، وهي تقدح المسافة، أحداثَ الأرض والسماء، خارطةَ أفلاك ومتاهات.

*      *      *

كل هذه الهشاشة.. كل هذه الخديعة والارتباك لجمالكِ الكلي.

*      *      *

ذلك الغضبُ الذي ينتابنا في أوقات فراغ ما؛ تلك القوة الهادرة في الأعماق. ما يشبه انتقاماً لا واعياً من

مبدأ الكينونة نفسه.. ربما هو الذي أشعلَ حروبَ العالم.

* * *

جنرالاتٌ يرضعون الليلَ والفراغ بمصّاصات أطفال هرمين، مستلقين على أسرّتهم المعدنية في المنازل المهجورة التي تعجّ بالعظايا والرفات. لقد أنهكتهم الحروبُ والدسائس من غير أن يعيشوا الحياةَ لحظة واحدة.

* * *

ليست الشكوى ولا غيرها ما يجدي أمام المُلمّات، لأن من تفضي إليه، إما أن يشمتَ فيك، وإمّا أنه لا يصغي إليك، وإن تظاهر بذلك، فهو في واد آخر، وإما أنه يعتبر نفسه وقع ضحية ثرثرة مزعجة بالإمكان تفاديها. الصمت ربما، أو الركض على حافة منحدراتٍ صخريّةٍ من غير الالتفات إلى الوراء، وأمامك المحيط.

* * *

جاء إلى المقهى وهو يغالب ضحكةً تنفلت بين الحين والآخر، ليلتقي أصدقاءه، فهرعت إليه الأشباح كسحرةٍ يطيرون في الهواء.

* * *

تلك المرأة التي كان الجمال غريزةَ حياتها الكبرى، تتغذى من مراعيه كما يتغذى النحل من الأزهار. منعّمة حتى في الشقاء: هبة السماء لمتسكعٍ لا يحلم بشيء.

* * *

لم يكن «ويلد فرد ثيسجر»، وهو يعبر الربع الخالي في ذلك الزمان، يبحث عن وجاهة ومجد، وأي شيء من ذلك في تلك الخارطة المترامية من العَدَم والوحشة؟
كان يمتحن ذاته، يضعها على المحك وهو يقذف بها إلى أخطر صَقْع للقسوة أنجبته الطبيعة في ولادتها القيصرية العسيرة عبر التاريخ. كان ينجز ذاته في مرآة صنيعها الذي تمتحن به عُنقَها الخاص.

* * *

ماذا تنتظر هذا الصباح
في هذه القرية النائية
تحلق ذقنك وتخرج إلى الغابة والحقول
نظيفاً مضمّخاً بالأحلام

ترقب البط السابح في الهواء
والعقاعق، تقفز من شجرة إلى أخرى
تحت مظلة من السناجب..
وأمام حقل الذرة الغزير
(بحر اخضرار وعزلة)
المتمايل بفعل ريح خفيفة،
تنام الأبقار والماعز في هدوء صيفي.
كل هذه المياه، وما زالت تمطر
كل هذه الفيضانات، وما زالت ترعد.
أي قسمة اختارتها الآلهة بين الهنا والهناك
حيث اليباب والقحط
وحين ينزل المطر على الديار
تنشقّ الأرضُ عن لَهب بركان
مصعوقةً، مرتبكةً، ظاَمئة.
أي حكمة لا نعرفها؟
تعرف أنه سؤال ساذج
مثل سذاجات أخرى نحبها.
لكن ما تعرفهً جيداً
أن صحراءك ممتدة عبر جبال الكون بأجمعه.
ملكة أولى
مسَتبدّة وعاتية.

*     *     *

الساعة الثانية عشرة ليلاً
موعد نومك
أستطيع أنَ أراك عبر ضوء النافذة الشفيف
تتهاوين على السرير
من فرط التعب والصداع بيوم صاخب في مدينة كبيرة
وفي الضَوء نفسه تخلعين الأساور والًأنهار
مزدانةً بشحوبكِ والليل.

* * *

الحصان الذي هو من سلالة غريبة من الأحصنة، والكباش. التيس بقرونه الكبيرة يذكرني بوعول جبل الكور. وكذلك الدببة الشرسة في الصحارى القطبية، تأكل العشب الطريّ، تلتهمه بشهية، من غير أن تخدشَ كبرياء الأرض، ولا تستبيح أسرارها بانتصارات كاذبة.

* * *

لا أتذكر صديقاً
إلا ويسبقني إليه تاريخ الخيانة
لا أتذكر عدواً
إلا وأرى فيه مستقبلَ البشر
كل عاصفة تقتلعُ جذورها في النهاية.

* * *

دوامةٌ من الأعاصير هي حياتك
وأنت فيها غريق ضَاحك.

* * *

لماذا لا ترى في الحقول الممتدة إلا ألَمَك
في الأرض الشاسعة إلا الخيبة مشرقةً وضّاءة تنتظر أمام كل منعطف.
ألهذا الحد بلغ بك القرف دون سواه؟ ألهذا تُهتَ في الأرض التي (ضاقت بما رَحُبت) دليلاً أعمى حيث تتجمع السُحب كأجرامٍ ميتة.

* * *

يتماثلون للشفاء
أولئك الذين طالت بهم سكّة الرحيل

* * *

لوسي: تنادي كلبها الغاطسَ في مستنقع الدغل
صماء لا تسمع أصوات العالم.
يا لها من سعادة.

*　*　*

الهائمون أفواجاً على درّاجاتهم
التي توارثوها عن أسلافهم
كما تتوارث شعوبٌ أخرى
الجمالَ والحمير.
في مساء القرية القاتم
يتهامسون بأحاديث سحيقة
طواها النسيان.
لقد أدركتهم الشيخوخةُ وسطَ سماءٍ من العشب.

*　*　*

غونتر غراس.. أنجبَ بطلَه أوسكار القزم الذي يرفض أن يكبر، وسطَ هالة من الذعر والخوف والحيرة، قلّ نظيرها في تاريخ الأدب. طريد الجندرمة الذي اختفى وسط أمواج ملابس المرأة الريفية وهي تحرث حقلَ البطاطا زارعاً بذرته في رحمها الرجراج، ويرحلان إلى حياة هادئة حتى يعاوده دولاب الرعب مرة أخرى، ويغيب وسط تلاطم بحار الخشب والأساطيل والمياه الهادرة لينجب أسطورةً جديدة في ذرّيته اللاحقة.
لحظة تكوين تليق بطفل يولد في هذا القرن وربما في كل الأزمنة.
للأدب قوة الحياة أحياناً.

*　*　*

لم أكن قبيحةً ولا جميلة. لا خيّرة ولا شرّيرة
وليست لي علاقة بنَسَب المقاييس
كنتُ يتيمة الدهر، صرخَة بحار تائه.
لذلك لم أرَ الأشياء والعالمَ
إلا بعيون جوارحي وحدها.

*　*　*

كلاب تنبح طوال الليل
شاحنات تعوي. ولا شيء آخر
هواجس وذكريات
ذئاب تحتضر في صخب المدينة .

*   *   *

الشاحنات جاءت من بلاد مجاورة
على متنها البضائعُ الثقيلة، والليل المحمول
على أكتافِ جنودٍ هلكوا في الحرب.

*   *   *

في هذه اللحظة
الشمس تغطس في المغيب.. صفرة حالكة.. لا شك ستضيء أقواماً أخرى تموت من البرد
ليل ألماني قصير
شمس رحيمة بالكاد تبزغ من بين أفيال الغيوم
التي تتهادى بجحافلها في الأفق

*   *   *

ضيف الضيوف: هكذا نعت نيتشه بطله وهو يرحل في أرجاء البسيطة مبشّراً بمقدم إنسان جديد.
في أي عصر سالف أو قادم سيأتي وفي أي أرض؟

*   *   *

التيس بلحيته الطويلة وقرونه الأطول والذي يشبه وعولَ جبل الكور وجبال أخرى في عُمان.
أرقبه هذا الصباح (الجمعة) منفصلاً كعادته عن القطيع في المرعى المكتظّ باًلنباتات والأعشاب التي توشك أن تكون خمائلَ وأَجَمَات. يرعى بطمأنينة، يحكّ رأسه أحياناً من ذبابة خضراء تطن. يرمق القطيع بمؤخرة عينه كأنما ينزو حلماً راوده البارحة حول نعجة في القطيع. الحصان النادر يشرئب بعنقه نحو سماء بعيدة غير التي نرى دخانها، فيما قرينه يقف منتصباً في لحظة هياج وانقضاض. السماء غائمة كعادتها.

ديك يسقع وسط دجاجات مُترَفة.
إنها الظهيرة، ظهيرةُ العتمة.

*   *   *

التليفون الذي سقط من جيبي فتناثرت أحشاؤه كقتيل في غابة.

*   *   *

القتلى يسدون الطريق صراخاً واحتجاجاً
يملأون الفضاءَ بالنحيب
من تحت مخدتي أسمع ضجيج القادمين في الأفق
بحارة وقراصنة، رعاة إبلٍ ومتسكعين شعراء، وقتلى في حروب عبثية.

*　*　*

مليئين بالعرق الرديء والحمّى
ناموا على أسلحتهم الصدئة
بينما البرابرةُ يستبيحون البلدة.

*　*　*

كان يزهو بُخيلاء فتوحاته حين سقط في مستنقع الفضلاتِ غاطساً من غير أثر.

*　*　*

لو اجتمع المفكّرون العرب ذات مرّة على أرض متاخمة، لهرب العدو من فوره..
ليس خوفاً بالطبع..
وإنما راحة من ضجيجهم واستيهاماتهم و.. ليبحث عن أرض أخرى.

*　*　*

العلْبة التي رميتُها البارحةَ على حافة الساقية مشعّة في ضوء البروق بعزلتها الصباحية، تدافع عن حقها في الوجود ضد القدم الساحقة.

*　*　*

كل صباح، أصل إلى حدود ذلك القصر المهجور، أقف أمامه، صامتاً مهيباً تعْول فيه الريح. ويبدو من فرط حضوره وهيمنته على بقية أجزاء المنطقة كثقب الأوزون وهو يجتذب المجرّات الهائمة في مجاله المغناطيسي. تخيلته أحد قصور دراكولا، وربما هنا صوّر المخرج الألماني هرتزوغ فيلمه عن الكونت الشهير. أقف منتظراً، ربما يطل من إحدى شرفاته كلاوس كينسكي في شكل دراكولا ويدعوني إلى موائده الباذخة.

*　*　*

كل تلك الأوقات التي صرفناها في التفكير في الموت، كل تلك الارتجافات والهواجس، وهو لم ينفق لحظةً في التفكير فينا. وحين يأتي بصواعقه المباغتة، ليس ثمة مجال للتفكير، ليس ثمة كائن أصلاً.

أي نبع لا يطاله الجفاف مقذوف في عرينك أيها الفناء؟

* * *

اليوم، أعدت قراءة محور كومبروفيتش في مجلة (نزوى)، أديب ضد الأدب، ضد نفسه، ضد كومبروفيتش، يحلم بقتله، بمحوه كي لا تهيمن الصورة على الأصل الذي كانه، كي لا يصبح عبداً لكومبروفيتش، حيث الأدب متشرباً ماء الحياة حتى أقاصيه. متدفقاً عنيفاً متمايزاً مثل مذنّب يجر ذيلَه البخاري في سماء خالية من النجوم والعلامات، جمال فطريّ متوحش.
ترى، أليست روايةُ (الإرهابي) نوعاً من سيرة لهذا الكاتب وبقليل من الاستقصاء، تلك الرواية التي ترجمها سعدي يوسف على نحو رائع؟
ألا يمكن أن يكون الإرهابي القاتل هو الرغبة التي تنبثق من بين أضلاع كومبروفيتش لقتل صورته. لعبة مرايا الذات في تشظيها وازدواجها بين الأصل والصورة.. الفن والحياة؟
كومبروفيتش.. درس للأدباء المتبجحين بفخامتهم الأدبية.

* * *

للغربان نواح الثكلى وهي تعكف على بيوضها، مهمهمةً بالمأساة، كل الولادات يختزلها نواحُ غراب.

* * *

أين ضوء النجوم الذي كان غائراً في العيون.. أين تلك القرى النجميّة في مساءاتنا البعيدة؟

* * *

يعود الراحلون إلى ديارهم الأولى، لتعميق خرائب الروح والزوَغان في المنازل المهجورة التي تخلع مفاصلها الريح.

* * *

لوسي: كلب المرأة الصماء الجميلة، اشتبك مع كلب آخر.. دارت معركة حامية الوطيس، لكن من غير دم ولا جراح . تقلباتٌ على العشب وغمغمات ونباح كأنما الصراع في جوهره كان صراعاً جمالياً للمتعة وليس شيئاً آخر.

* * *

في نزهة المساء، ألتقي بالشاعر الأيسلندي على دراجته يجوب الحقول. قبل أيام، سألني هل نجيب محفوظ تركي؟ اليوم يسألني عن أشياء أخرى وعن ماذا أعمل. قلت له: ربما أكتب نصاً جديداً أو أنعم بالطقس ومراقبة الحيوانات وهذا يكفي. حدثني عن أيسلندا الصغيرة والطقس الذي هو نقيض طقسنا

على طول الخط.

*    *    *

السماء محتقنة كمخاض.. رذاذ ناعم على الرأس.
قبعة رجل عجوز تسقط في بركة آسنة. طيور سوداء كثيفة تحلّق على انخفاض لتحطّ على قصر الكونت دراكولا مضيفةً لمسة غموض على وحشته. هيتشكوك يقترب بكاميراته الخبيئة بين الأشجار ليصور فيلمه (الطيور)، هرتروغ أنجز فيلمه ورحل.

*    *    *

أغرب الكلاب قاطبةً، كلب جارتي النحاتة الأسكتلندية، فهو يقضي وقته في النباح مثلما تقضيه هي في نحت الأشكال والأجساد، في نحت مخلوقاتها الخاصة، فكأنما نباحه دعم معنوي لها في رحلتها اليومية. هو يتسلى بنباحه كنداء للمجهول، وهي بإزميل الخلق الإبداعي ومغامرته في المجهول أيضاً.

*    *    *

العالم موحش كأنما يجترّ حطامَ ليلته الأخيرة في قلبي: دمشق قبل عشرين عاماً.

*    *    *

هذا الشيء جميل لولا.. هذه المرأة جميلة لولا.. هذا البلد.. لولا.. هذه القارة.
هذا الطقس– هذا الكاتب.. هذا الحاكم.. هذه الأرض.. هذه الحياة.. هذا الموت– هذه الجنة.. هذه اللولا الباسطة جناحها ونفوذها بهذا القدر الأخطبوطي، من الأزل إلى الأبد، وما بينهما من نقصان ساحق هو الطبيعة الجوهرية للأشياء والمخلوقات جميعها.

*    *    *

ليس كالبكاء مطهراً لأحزان مدلهمة. مع الأسف، لا نستطيع البكاء بسفح الدموع التي تندفع نحو الداخل حافزةً أخاديدها التي لا تبرأ.
المرأة تستخدم الدموع بمهمة مزدوجة: للتطهير وإخضاع الرجل وإفراغ غضبه وسطوته.

*    *    *

في كل بلد عشت فيه أو رحلت إليه، لا أجد أي اندفاع عندي تجاه قاطنيه الأصليين ومواطنيه، وإنما، وبشكل تلقائي، نحو مغتربيه ووافديه. شجرة الاغتراب الراسخة التي رضعنا حليبها باكراً.

*　　*　　*

«الجنة بدون ناس ما تنداس» (مثل خليجي).. بالعكس، ستكون أكثر جمالاً ونضارةً وسحراً.

*　　*　　*

نكأتْ جرحاً سحيقاً، وإذا بالماضي يتدفّق ماثلاً رهيباً يحتل المشاعر والمكان بأكمله.. نقطة الخطر.. مثلّث برمودا الجحيم رابضاً في الأعماق.

*　　*　　*

الحقيقة البشرية عارية في لَهب المغيب.

*　　*　　*

تلك الشعوب التي أدمنت الذلّ والعبودية حتى أصبحا جزءاً من طبيعتها النفسية والعضوية.. أي فلسفة تسعف في تحليل ما جرى؟
نمط الإنتاج الآسيوي، طغيان الشرق، سيكولوجية الجماهير والسلطة.. إلخ.

*　　*　　*

لم يشعر بأزمة منتصف العمر ولا غيرها أمام أزمة وجودٍ بأكمله. مربط الأزمات وبيت قصيدها.

*　　*　　*

دفعتني رداءة المطاعم للذهاب إلى «السوبرماركت» وجلب ما يلزم من مؤونة للطبخ، الذي هو طبخ تجريبي على غير نمط سابق، عدا الطبخة التي علمتني إياها كلود رحمة ذات مرة وهي مرقة الدجاج بماء الطماطم.
الأعمال اليدوية تطلق سراحَ الخيالِ أحياناً.

*　　*　　*

نعتاد على شيء لا نلبث أن يهجرنا أو نهجره إلى آخر. ربما هذا القلق بجانب أعبائه وعذاباته، نوع من حصانة ضد العبودية.

*　　*　　*

اتصلَ صديق وزوجته من الكتاب، قالا إن شروط اللجوء وآلامه أفضل مع التفكير بعقل حر.

*　　*　　*

لو كانت أوروبا تقبل كل من تقدم إليها من العالم الثالث لأُفرغت قاراتٌ عن بكرة أبيها.

* * *

اتصلت بفاضل، اتفقنا أن نذهب إلى هولندا القريبة، فالقرية أقرب إلى المدن الهولندية منها إلى معظم المدن الألمانية. تحدثنا عن روايته الجديدة وبأنها أفضل أعماله (الأسلاف)، وبالفعل، ثمة توسيع وتعميق لطرائد السرد والمناخات التي كانت تضطرب في جنبات سابقتها (آخر الملائكة)، تلك الكوميديا السوداء العنيفة: يتداخل في شبكة السرد المحكمة كل الشخوص والعوالم/ التفاصيل الكليات. العادي، والسياسي والخارق عبر مخيّلة فانتازية كاسحة، فكأنما العزّاوي يسوق بعصا الراعي الحكيم من فرط رفاهة الرؤى تلك القطعان الشرسة في التاريخ والحاضر إلى مصائرها الحتمية.

* * *

ألتقي بالشاعر الأيسلندي يجري تحت المطر معتمراً قبعة، تبادلنا تحية عابرين، أجراس الكنيسة المجاورة تقرع على إيقاعات الأناشيد والخشوع الروحي. المكان فارغ أكثر مما كان. تذكرت كاتدرائية كولون التي دخلتها قبل أيام، تلك الآية المعمارية الفريدة، ضاجة بالطقوس والبشر والإيحاءات. تذكرت الكنيسة التي كنت أرتادها مع صوفي.
حيث تنفجر الموسيقى على غفلةٍ من نعاسنا وقُبلاتنا فنذوب في الأثير مهوّمين في فضاء تجريدي خالص.

* * *

اتصلَ عبد الملك وأحمد، قالا إنهما سيأتيان لزيارتي لو ضبطا مكان القرية في خضم الخريطة الألمانية.

* * *

طافت به تهاويم حب قديم، طفولة عتيقة. قال: إلى الجحيم كل ذلك الحُطام الذي عذبني.

* * *

يلتقي الغرباء صدفةً في الحدائق العامة، ليقرأ كل واحد حيرته العريقة في وجه الآخر من غير سلام ولا كلام.

* * *

الحصانُ الأشهبُ الفارع يعدو سابحاً في ضبابِ الحقول.

* * *

طائر يصدح على نافذتي كل يوم، يمنحني لحنه النهاريّ هدية من حبيب بعيد.

*    *    *

براءة المعرفة أكبر قوة، نواجه بها توحش الأشياء والثكنات وثقيلي الدم.

*    *    *

ليس الندم إلا من شيم النفوس التي طوّحت بها الأحاسيسُ العميقةُ بعيداً عن دوائر القطيع وتواطؤاته.

*    *    *

ليست للموت حسابات مسبقة، حسابه الوحيد حصد الأرواح من غير عدّ ولا حساب.

*    *    *

الشاعر الذي همه الوحيد استقطاب الجماهير بالصالح والطالح من غير اعتبار جمالي وأخلاقي وإنساني، هو أقرب إلى السماسرة والمهرجين منه إلى عالم الشعر الحق.

*    *    *

دعك مما يقوله الآخرون، أي سر سيبوح به هذا المساء، أي قصفٍ ستتبادله مع هوام الليل وثيران البحار.

*    *    *

يغرز يده في عشب امرأة حتى يصلَ إلى قاع الأبدية.

*    *    *

شاعر ذلك الذي يتدحرج مع عبارته إلى أعماق هاوية لا قرار لها.

*    *    *

كان وقوراً وصالحاً في قومه، صاحب أطيان، مستقيماً أيما استقامته في كل ذرات حياته وجزئياتها. مات رحمه الله قبل يومين بذبحة صدرية. ترك إرثاً لا يستهان به، ستتقاسم استقامته من غير اعوجاج أجيالٌ لاحقة.. رثاه شعراء بقصائد طنانة، ذرفوا الدمع دماً كنائحات بالأجرة.

*    *    *

هذه الرحلة من بين رحلاتي الضاربة في شتى الأمكنة، حملت خصائص طريفة من بداية انطلاقتها، فبعد توقف دام (8) ساعات في أمستردام، وصلت بعد منتصف الليل، فإذا بالحقيبة لم تأت، ظلت في أمستردام وبقيتُ في انتظار مجيئها الذي تحقق بعد يومين، بعد عودتي نحو المطار مرة أخرى متجهاً نحو القرية الألمانية (شوبنغن) التي أنوي الإقامة فيها فترة. كانت الساعة الثالثة ليلاً والمسافة من

المدينة حتى المطار تستغرق ساعة ونصف الساعة. الدنيا موحشة والشوارع مقفرة حتى من الشاحنات، ومصابيح الشوارع مطفأة تماماً، بالكاد تسمع حركة موج المحيط الغارق في الظلمة، وأنا لم أنم، كانت آخر سهرة قاصفة مع الأصدقاء في مهرجان الثقافة.
السائق الذي ينقلني نحو المطار ينقطع بغتة عن الكلام ويسرح في عالم بعيد. فجأة يخرج علبةً يسكب منها سائلاً أبيض على راحة يده. يظل يشتمها بعمق حتى ينقطع نَفَسه ويعاود الدورة بعد الأخرى. والسيارة تتهاوى في أكثر من اتجاه في ذلك الليل القاسي الكثيف الظلمة، ثم يندفع نحو التسجيل بأقصى طاقة الصوت. الشاب خالد والشاب ميمي وشباب آخرون، لا أستطيع وصف الحالة التي انتابتني، والمسافة ليست قصيرة، دخلت في مستنقع من التوقعات الخطرة وكلها ممكن وطبيعي في سياق هذه الحالة، كنت أخفف من وقع هواجسها المفترسة بالتطلع إلى النجوم مرسلة ضوءاً باهتاً في تخوم المحيط. أو النظر إلى شجرة وحيدة تهزها رياح الليل فتوحي بأنها غابة. وأحياناً أستل من الذاكرة المرتبكة حدثاً ما عشته في المدينة التي نحن بمحاذاتها، حدثاً حميماً، ذكرى لطيفة.
أخذ السائق يسترد وضعه الطبيعي تدريجياً كأنما عاد من رحلة لمدينة خارج العالم، أخذ يتحدث عن أحد شباب الأغنية وقال إنه يعيش في فرنسا، كرر الجملة ست مرات وحتى وصلنا إلى المطار كأنما اجتزنا الصحراء الكبرى.
عانقني كصديق قديم. أحسست بمتعة من اجتاز نفقاً من الكوابيس والأشلاء.

* * *

أصحو من نومي، أفتح النافذة، السماء تمطر بشدة، نحن الآن في منتصف الشهر السابع والطقس يشبه كثيراً طقس الشتاء. سكون وهدوء مطبقان. تتصل المرأة العريقة في الذاكرة تقول إن سعد الدين إبراهيم اعتقل بتهمة التجسس لأمريكا.
وقالت من الضروري أن نلتقي في بحر هذا الصيف. بعد أن أغلقت سماعة الهاتف، أحسست بشوق فعلي إليها.
تتصل صوفي، تشتمني على انقطاعي، البارحة رأيتنا معاً على متن باخرة سائحين في ربوع العالم من غير هدف.
أشرب الشاي، ألبس ملابسي، وأمضي تحت وابل المطر. تذكرت بطل هيمنغواي، في (وداعاً أيها السلاح) بعد موت حبيبته يخرج متنزهاً تحت الأمطار الغزيرة يشاهد تفتحات الطبيعة وولاداتها. أمضي صوب إدارة القرية حيث (أنيتا نويمان) المسؤولة الإدارية لشؤون ضيوف القرية. امرأة على مشارف الخمسينيات، طويلة وعلى جانب من الحيوية والجمال الذي يوشك على الغروب.
تطفح بأنوثة واضحة. كنت قبل أيام سألتها إن كانت من القرية نفسها، أجابت بأنها من قرية أخرى صغيرة جداً لا يتجاوز عدد سكانها المئات. تخيلت أنني ذاهب معها إلى تلك القرية نتجول في حقول طفولتها المعرّشة بالكروم والنباتات المختلفة. وحيدة مليئة بالعزلة والبحث اللامجدي عن الآخر. تخيلتني ذلك الآخر فوراً، لكن الالتفاتة التي تفصح عن نوع من صرامة في هيئتها وهي تلقي برأسها من

يمين المكتب نحوي، جعلتني أتراجع في أحلامي تجاهها، ذلك النوع من الصرامة التي تنبثق من منطقة غامضة في الروح الألمانية والذي ساهم في صنع أهم التحولات المعرفية والعلمية في تاريخهم المحتشد بالهدم والبناء.
أخرج إلى الغابة التي كانت خالية لكنها ليست موحشة، فثمة ما نأنس به في الطبيعة أكثر من بني جنسنا أحياناً. أقول أحياناً لأن واحداً مثلي لا يدعي امتلاك تلك الطاقات الروحية التي تملكها قلة من بني البشر. وهي قلة محظوظة في امتلاك الإرادة الحرة الجبارة في التحرر من إكراهات الآخرين وتقلصاتهم المزمنة؛ لكن في حدود الممكن واللازم للكتابة والروح في الانفصال عن السياق العام للدهماء.
وأنا في غمرة انشغالي بتأمل مختلف حيوات الطبيعة ومظاهرها الآسرة، بعد طول معاشرة للجبال الجرداء والأرض القاحلة، يتقدم شاب طويل حليق الرأس يبدو أنه صغير السن رغم عملقته، يلبس أساور وحلقاً وأحزمة في أنحاء جسده المليء بالوشوم، حييته بإشارة من رأسي لكنه لم يرد.
توجست خوفاً في كونه ينتمي إلى الجماعات النازية الجديدة المعادية للأجانب في الديار الألمانية والأوروبية، راقبته من طرف خفي. التفت نحوي لكنه لم يواصل الطريق، انتحى ناحية في أعماق الغابة. قلت ربما يترصدني وأنا أعزل في هذا المكان المقفر الذي تكثر فيه عادة حوادث قتل وإجرام. فحين كنت في لاهاي، كان الأصدقاء يحذرونني من المشي الطويل في الغابات الكبيرة، بقيت متوجساً مترقباً قفزته الدموية، لكن ذلك لم يحصل كما هو واضح. واصلت طريقي إلى خارج الغابة حيث بعض الأفارقة يلوذون من المطر تحت صفيح ملعب للأطفال.

* * *

الدجاج مع الطماطم والبصل والثوم يغلي في القدر. هل عليّ أن أفكر في حياته وموته. وكيف دارت عيناه في نظرة أخيرة تحت سكين الجزار أو في مفَرمة عملاقة.

* * *

طيف أمي، متعَبة، شحيحة البصر، لا تمشي إلا مستندة على ولد أو حفيد، دائماً يقربني من نهاية العالم. أتذكر أول وداع ودّعتني من بيتنا القديم في مطرح، ملوّحة بيدها النحيلة والدموع تنهمر ساطعة في ظهيرة ذلك اليوم، مؤكدةً عليّ الرجوع السريع وعدم الغياب، الذي اتخذ لاحقاً هيئة المأساة بكامل ثقلها وبهائها وعبثها. أما الآن، وبعد هذا الزمن الذي يختزل أعماراً، لم يعد للوداع من معنى لديها، لم تعد حتى تعتب.. لقد استسلمت، ذلك الاستسلام النبيل، وأدمنت الغياب الذي صار سمة مشتركة لحياتنا. لا أحد يستطيع الإفلات من قدره الحتمي. لقد قاتلناه وراوغناه، لكن في النهاية إلى أين سنصل؟
من أين لي أن أفي بذلك الدَيْن الذي صار يثقل حياتي بمشاعرَ باهظة؟

* * *

هذا القبسُ الذي يعبُر السماء رسالةٌ من نورك الأزلي.

*  *  *

الكتابة كالحب توسع شرنقة المكان. تغوص فيه لتستخرج أبعادَه الخفية وتبتكر أبعاداً أخرى أكثر جمالاً. تُحوّل القبر إلى فضاء فسيح، والحصارَ إلى جنة موعودة. هكذا، بقدرة سحرية، لا يعود الكائن هو الكائن ولا المكان هو المكان. كم من العلاقات في تاريخ البشر تلاشت إلا تلك التي خلدتها العاطفة والوجدان الممزق. وكم من الأماكن اندثر إلا تلك التي حولها الفن إلى ما يشبه الأسطورة.

*  *  *

مطر ورياح وفيالق سحب تغري الشياطين بالسباحة في الأفق.

*  *  *

ذنب يجفل من ظله في الظلام القاتم.

*  *  *

لا عزاء لأولئك الذين رأوا ذات مرة، ذات دهر، بمنامهم ويقظتهم وبأقصى أعماق وجودهم، ما آلت وتؤول إليه أحوال العالم والبشر، حتى لو سَخَت عليهم الحياةُ وهي غير سخية لأمثالهم.

*  *  *

غالباً ما يكون الحلم عن الأوغاد، حجرَ عثرةٍ أمام الحياة.

*  *  *

ذلك القاتل المختبئ بين الأشجار، وريث القساة السطحيين.

*  *  *

كم من الهناء ينعمُ به تيس جبل الكور وهو يغمض عينيه ويفتحهما بعد جلاء السُحب.

*  *  *

اليوم دخلت غابةً جديدة يتصدرها تمثال للعذراء وهي تحتضن سيدنا عيسى المسيح طفلاً. تقدمتُ خطوات بين الأشجار بمزيج مشاعرَ متناقضة. أحسست بخوف وجلال غامضين. استحضرت الغابة السوداء، مهبط أفكار الفلاسفة الألمان، ولكن ليست هي بالتأكيد، فتلك تقع في منطقة أخرى وأكبر حجماً واتساعاً بما لا يقاس. تجولت فيها والغابة السوداء تهيمن على أفكاري ومشاعري. ترى كيف استطاعت تحمّل ذلك العبء الرهيب لذلك القراع الفكري وعنفه وصخبه وتعقيده وما لا يخطر على بال، لأولئك

الرجال الشاحبين دهاة المعرفة. بأي قلب وذاكرة صلبة لا تلين، ألا يمكن أن تكون أشجارها العملاقة قد نبتت من تلك الأفكار والسجّالات الأكثر خصوبةً في التاريخ البشري، وهي الآن ترقب ألمانيا والعالم من وراء نظام صارم لا هوادة فيه.
لقد رحل الفلاسفة بأجسادهم، وبقيت الغابة والأفكار والأحلام في إخاء عميق، محتفظة بما خفي من السر.

* * *

غالباً ما تخفق الأمم الكبيرة في تاريخها وتصاب بالهزائم والنكبات، لكن روحها الحية تبقى عصية تسري في دم السلالات، موقد قيمٍ لا تطفئه الأيام. هل نستطيع توسل الكلام نفسه عن أمة العرب الآن؟

* * *

يعود الرعيان وكذلك الصناع وأرباب الحرف والكتبة وأصناف البشر الأخرى، في مساءات المدن والقرى، إلى منازلهم، ينعمون بالسكينة ويمارسون حياة بهيجة حالمين بيوم آخر مفعم بالحبور؛ وحده الملتاث بغربةٍ لا نهاية لتخومها يجلس في ركن شبه معتم يكتب مذكرات يأسه عن قرن قادم.

* * *

ما دمت مريضاً وأنجز الجميع مهمتهم بمثل هذه الضراوة، فلماذا أشفى؟ ألكي أسقط في حفرة مرض آخر؟

* * *

ليل بعده نهار، ونهار بعده ليل، فصول متعاقبة في دورتها الفلكية، نجوم في السماء وبشر وحيوانات على الأرض، موت في حياة وحياة في موت بصحراء لا متناهية. أليس من تصحيح ممكن لسقطة الوجود الأولى؟

* * *

عبد الرحمن منيف.. في كل رواية يسوّد آلاف الصفحات حتى امتلأت الرفوف بملحمة التحولات التراجيدية لزمن عربي يوغل في انحداره. حكاية واحدة بتجليات أمكنة مختلفة تقول التاريخ والحاضر في انكسارهما المتواصل بزمن لم يعد أحد يقرأ فيه حتى كتب الطبخ والموضة، بعد أن أغلقت الصورة المرئية السهلة بتلقيها السلبي الكسول، كل نافذة لقراءة ممكنة. بعد أن هيمن المجتمع المشهدي بكامل فظاعته وثقله. أي جَلَدٍ وصبر توارثه عن أجداده البُداة الرحّل في قفار الجزيرة؟

* * *

أستيقظ من نوم ليس خاليا من الأرق والأحلام، وإن كان أخف وطأةً من ليال أخرى، فكأنما ولدتُ من سلالة أحلامها وكوابيسها أكثر وقائعها تَعيّناً أو أن الزمن مناصفة بين الاثنين.
أتذكر لقطة من حلم البارحة، رأيتني أصعد سلما بغية الوصول إلى سطح أو قمة ما، لكن حين أصل قريبا من السطح، يصيبني عجز مفاجئ، فلا أستطيع الاستمرار. أفكر في نومي أن أقوي عضلاتي وأهتم بصحتي.
أصعد مرة أخرى فيصيبني الضجر في منتصفه وأقفل راجعاً. يبدو واضحاً أن هذا الحلم قريب من المنطقة السيزيفية في الأسطورة، لكن هكذا جاء، فربما الأسطورة نفسها كانت حلم شخص ما في زمن آخر.
أستيقظ على ضربات الإزميل لجارتي النحاتة التي ذهبت معها البارحة إلى مكان غسل الملابس في المبنى الآخر. عبرت عن صعوبة فن النحت وما يتطلبه من تركيز عضلي وذهني. كانت ضرباتها قوية صاخبة من غير نباح الكلب الذي يبدو أنه صمت يحدق في مرآة ضربات الإزميل. ويبدو أنها تعالج خامات ومواد صلبة لتشكل مخلوقاتها في لحظة توتر واضطراب أو لحظة مبادرة كالصقور التي تتراءى في عينها الطرائد. كانت معنية بالحياة البرية في منحوتاتها مثلما الوضع البشري في لحظة تحولاته وعزلته.
أخرج إلى الشارع العام الوحيد في القرية باحثا عن مقهى، مسحت الشارع كاملا وسألت من غير جدوى.. افترسني إحباط.. أخذت أجري تحت عصف المطر. شاهدت عجوزاً تصرخ لأن كلبها احتجز نفسه في «فترينة» محل تجاري، رأيته من وراء الزجاج «يوهوه» كأنما يختنق. اتصلت ليلى راسمة لي خارطة أسفارها. اتصلت سعاد قائلة إن «الستالايت» شغال وحركة العالم والكون في قبضة يدها. كنت أسمع في الخلفية وهي تتحدث بحماس وفرح كاتمة ألمها الحقيقي أغنية لنجاة الصغيرة (في ليلة من ليالي فاتونا) أحسست بحنين إلى القاهرة، صخب عمال وآلات يشذبون الأشجار في محيط المنزل.. لا مقهى في القرية.. أين تلك المقاهي التي قضينا شطرا من حياتنا بين ردهاتها وظلالها ومشاربها، نحلم ونحب ونكتب.
كان المقهى بيتنا الحقيقي.. أما الآخر، فلنوم سريع فقط. كم من الحكايات والشائعات والأفكار والدموع سفحت على أرضية المقهى وفضائه الواسع؟
كم من أوقات الإفلاس ألمت بنا، حيث نظل نحوم كالمنبوذين متلهفين للدخول؟
ذات صباح، وبمحض الصدفة التقينا، كاظم وصمويل وأحمد أمام مقهى بعينه معروف في المدينة، تحت المطر الكاسر، ونحن لا نملك قرشا للدخول، منتظرين الفرج من أي صديق ينقذنا لوقت آخر.
ذات مرة، كنا في ذروة الإفلاس أيضا، وكان يوم أحد، ولم نعدم الحيلة حين وجدنا ثلاث زجاجات من العطر جاءتني هدية في ذلك الصيف. ذهب صمويل لبيعها بأبخس الأثمان لصاحب خان؟
في مسقط، تعودت عدم الجلوس في المقاهي إلا نادرا. كنت أقضي سحابة يومي في فندق البستان الكبير. فهناك مقهاي وحديقتي وبحري. وهناك طيور الصفرد (الدراج) ذات الأصوات الجرسية المتكسرة كحزمة أنغام يقذفها السيل من قمة أحد الجبال المحيطة. وهناك الأسماك الصغيرة تقفز جماعات كغيوم بيضاء فسفورية على سطح البحر قريبا من الشاطئ، خاصة في مواسم بعينها حين تهيج أسماك «الجرجور»

و«الجيذر» وهي تجوب عرض البحار وعمقها مكتسحة كل شيء في طريقها كسباع ضارية.

* * *

من يرأب الصدع العميق في ذلك الجدار الذي عششت فيه الأفاعي وفقست بيوضها السامة.

* * *

بركان يتلوى من فرط احتقانه كي يجهش بالبكاء.

* * *

ربما تحرشت بالكونت دراكولا وهو الوادع في قصره بين نسائه الكثيرات، نساء دراكولا الفاتنات، يصغي إلى نحيب الذئاب ويقول «هؤلاء أطفال الليل يغنون»، فقد أرسل لي هذا الصباح إشارة غاضبة، عبر مسافة طويلة من قصره ينبلج كلب يزن ثلاثة ذئاب حجما وعنفا، كأنما انشقت عنه الأرض. أو نزل على مظلة طيار حربي من الفضاء، نظيفا نظافة من خرج من حمام بخار للتو دالقا لسانه كحريق.
ألحظه من آخر الطريق الذي يفصل بين الحقول ويصلها بالغابة. يتقدم نحوي بمعرفة أكيدة واثقة كأنما يحمل رسالة أو هدفا ما كلف به من قبل قوة خارقة.
داريت خوفي، وهو المخيف بشكل فعلي، شريد لا صاحب له، وهذا نادر في هذه الديار، ظل يتشمم ملابسي وينبح نباحا خفيفا وأنا أتجاهله كي يمضي في حال سبيله، لكنه لم يمض ولم يتجاهلني، ظل ورائي مسافة تطول وتقصر حسب مزاجه، ربما كي يعطي ضحيته سعة الحركة وهو يعلم أنها حتما في قبضة مخالبه. لاهثا لهاثا هادرا كأنما سيجرف القرية بعد قليل. كم مرة اقترب مني حتى الالتصاق التام، وأنا أداري الصرخة التي ستنطلق من أعماقي حاملة كل رعب العالم. وكم مرة تخيلت انقضاضه وتحويله جسدي المرتجف إلى مزق وأشلاء.
أمشي كمن يؤجل انهياره، شبه متماسك بفعل قوة تنبجس لحظات الخطر؛ لعل أحداً أو حيوانا ينشغل به ويكف عن ملاحقتي. عبر مسافة خمسة كيلومترات في الحقول الخالية وهو يتبعني على هذه الحال حتى وصلنا إلى مجموعة أطفال، ظل يتشممهم، راوغته قليلا، لكنه تركهم وظل ورائي، ومن ثم عائلة أخرى وأكثر من عجوز نبح في وجهها، لكنه ظل يتبعني لا يحيد قيد شعرة عن مركز اهتمامه، ولا تنفع معه حيلة أو مراوغة حًتى ظنوا أني، لا شك، صاحبه. استسلمت لقدري وصحبته أخيرا إلى إدارة قرية الفنانين، حيث السيدة (نويمان)، ظل ساعات خلف المبنى حتى اختفيت. بعد هذا الحدث –الإشارة– سواء من الكونت دراكولا أو من أحد زعماء السحرة في بهلا لافتا نظري بقوة إلى وجوده الذي حاولنا إلغاءه عبر الدعوة إلى نبذ خرافات السحرة – الحدث الأول من نوعه رغم عيشي في بلدان تكثر فيها الكلاب والحيوانات المختلفة.
أحالني هذا الحدث – الإشارة – أيضاً إلى لقطة من الذاكرة حين كنت طفلا وبعد غروب الشمس في مسقط، كنت أجتاز العقبة الجبلية من منطقة (الميابين) إلى الجانب الآخر، حين انبثقت من الظلام والمزابل

ثلة كلاب شريدة ظلت تهاجمني وهي تنبح نباحا قاسيا في ذلك الليل البعيد. كنت مزنّراً بخنجر حسب العادة العمانية، خاصة في ذلك الزمان، حيث الخنجر لا يفارق خواصرنا الطرية إلا عند المنام.. ما زلت وأنا أمشي في الحقول التي انفجر الكلب العجيب من ظلالها، أسمع لهاثه الجارف المتواصل، منتظرا إطلالته من أي دغل ومكان. وربما أحسست بعاطفة تجاهه، تلك العاطفة التي تخترقنا أحياناً بشكل لا يمكن تفسيره تجاه الصواعق والمغامرات والموت.

* * *

أجلس على كرسي في الحقل المجاور للمنزل أقرأ كتابا. يمر شاعر من ألمانيا الشرقية سابقاً ورسام من هولندا، سألته عن المسافة التي تفصلنا عن لاهاي. قال لا تتجاوز الساعتين. كان الشاعر الألماني أشقر بشكل لافت، ذكرني بأيام الكومسمول الآفلة، يبدو أن الألمان الشرقيين أكثر شقرةً وطيبة وفقرا، وربما لهذا وقف غونتر غراس ضد الوحدة الألمانية واعتبرها إلحاقاً وقسراً.
اتصل خالد قائلا إنه سيأتي مع فاضل ومنى وعبد الله لإيصال فاضل وقضاء يوم في القرية. كانت السُحب تتكاثف مسرعة وتحجب قرص الشمس الواهن (هناك تتمنى غيمة شريدة لتغير لك المزاج) نزلت قطرة مطر، قطرة وحيدة كأنما هي طليعة الأمطار القادمة مثلما تيس جبل الكور طليعة قطعانه، والكلب طليعة المعجزة.

* * *

اتصلتُ بصوفي على أن تتصل بي لأن نظام إفراغ البطاقات الألمانية معقد ولم أعتد عليه. اتصلتْ بعد قليل. كنت في مقعد في الحقل المجاور الذي رميتُ على حافة ساقيته قبل أيام العلبة الفارغة، التي ما زالت تدافع عن وجودها ضد الطقس وأقدام البشر، خاصة الصبية، قالت صوفي يجب أن تأتي سريعا، لقد نزعت عطلتي الصيفية الرباط –كولون– القرية و.. يبدو أنها راقت لك. قلت باستثناء بيت الفنانين والكتاب فمعظم من أراهم عجائز وكلاب وشاحنات. وهي من بين قرى ألمانية تكثر فيها نسبة المتقاعدين. لذلك، لا أعتقد أنني كنت مخطئا حين خمّنت بقصر لدراكولا، رغم تحدره المتداول من رومانيا، فالكونت الشهير بنزواته ونسائه وولائم افتراساته الفارهة، لا يمكن أن يكون مرتبطا بنظام عمل يومي.

* * *

اتصل محمد وطالب وآسيا وأشرف في يوم واحد. في آخر المكالمة سألوني إن كنت أريد رطبا، فالحر على أشدّه، قلت: الرطب للصامدين في المكان، وأنا هذا العام انسحبت من جبهة الصمود. شكرتهم، اتصلت المرأة العريقة في الذاكرة، قالت إنها تجلس في نفس المكان الذي جلسنا فيه ذات يوم أمام البحيرة. قلت المكان يمكن استعادته في الأدب والمخيلة، لكن من الصعب على صعيد الواقع. تلزمنا لمسة ربانية بالغة الشفافية والحنان لاستعادة بعض ما مضى. لكن الذكريات، ربما، ملاذ لنا من الاندثار.

* * *

أخبرني فاضل أن ثمة ألفي صندوق لمؤسسات خاصة وأفراد لدعم الثقافة في ألمانيا في مختلف أنشطتها وتجلياتها. أما دعم الدولة، فيصل إلى مئات الملايين. على سبيل المثال، مسرح بريخت يتلقى ما يعادل مبلغ ثلاثين مليون دولار سنويا كدعم خالص، لا أريد المقارنة مع الوضع العربي، ففي آخر ثانوياته الوضع الثقافي والبحث العلمي، إن لم يكن ثمة عداء مضمر وعلني لهذا الوضع. إنه من المعايير الأكثر بداهة لمؤشرات المسافة الشاسعة بين التخلف والانحطاط، بين الحضارة ونقيضها.

* * *

أرنب يرعى في الحديقة وطائر يشبه البلبل يصدح بلحنه الفريد، تمر الفنانة التي هي من مدينة دوسلدورف الأكثر جمالا ورقة، تمر محيّيةً. قبل فترة، افتتحت معرضها التشكيلي. وجهها الأكثر حضورا في ذاكرتي بقي يحييني دائما عبر الغياب.

* * *

حشرات الصيف تغرد، مرجئةً موتها لشتاء قادم.

* * *

يجلس الغرباء في الزوايا كأنما يؤصلون عزلةً سحيقةً في النفس والمكان.

* * *

صرخة الألم، صرخة الحرية، أيهما أسبق؟ هذا هو النموذج المدرسي لترَف المعرفة.

* * *

روح اللامبالاة ببهوها الشاسع، هي التي أبقتنا أحياء، وإلا فطسنا منذ زمن بعيد.

* * *

كان لا يبالي بالإبادات والمظلومين من فرط ما نام مع الضحايا على سريرٍ واحد.

* * *

كل شيء يتراجع ويختفي مع الأيام إلا حدثاً – جرحاً بعينه، يظل يؤجج نفسه باستمرار جذوة لا ينطفئ لهيبها، كأنه القدر الذي كان عليه أن يودي بحياتك مبكرا، ولأن ذلك لم يحصل، فيظل يلاحقك حتى النهاية.

* * *

حشرة تزمجر في الأواني الفخارية المركوزة منذ زمن في ركن البيت القديم: كم من العصور تزمجر، هادرة في أعماق المكان.

* * *

اتصل عبد الله وقال إنه قبل عودته إلى إنجلترا، ذهب إلى مكتبة في بلدة الرستاق ليأخذ العدد الجديد من مجلة نزوى، أجابه صاحبها أنه منع توزيعها في مكتبته بعد أن وصل إلى سمعه عبر إشاعة رائجة أن كتابها من (العلمانيين).

* * *

تتساقط الأيام مطرا ثقيلا على رأسك، مطرا أسودَ وأنت تحدق في نهر لا أول له ولا آخر، نهر المخيلة الذي يجرف الوقائع والأشياء والحيوانات إلى مثواها الأخير، صانعا منها عجينة الكائن الموغل في فنائه.

* * *

ينهمر المطر على النهر انهماراً يقتبس من الشعر أَلَقه المكلّل بأقواس قزح تقطرُ مطراً وصحواً كأنما الأنوثة والشعر ينهمران على جسد النهر.

* * *

أنظر إلى طمي النهر بعد أن أفرغت حمولتها، ديمةٌ قوية، تتحرك مياهه في كل الاتجاهات حتى يغيم مجراه الحقيقي في الدوامة الناضحة برائحة العشب والقعت، التي هي رائحة الولادات المتجدّدة للمياه. متذكرا أودية عُمان في عصورها الجيولوجية السحيقة، حين كنا نسأل أمهاتنا النظرات في ضوء المطر: أين تذهب مياه الأودية – إلى البحر غالباً، أو تبتلعها الأرض في المواسم الممحلة.

* * *

يجرجر أحشاءه على رصيف الميناء، بعد أن حصده رصاص القَتَلة المختلط بصفير السفن التي كانت يلهث نحوها بغيةَ الهروب.

* * *

لماذا يستفيد من دروس حياته؟ وأي مسار سيصحح بها، في ظل هذا التشوش والاختلاط، في ظل انهيار الجهات جميعها. حيث لا يتراءى للعين إلا شبحُ الموت وحيداً مشرقاً في ربوع الصحراء؟

* * *

في هنيهة عابرة (غالباً في الصباح من غير سهرة قاصفة) يحتضن أيامه كنساء عاشقات.

* * *

بين مقهى في شوبنغن وآخر قريب من هيثرو، يتجمع سائقو الشاحنات وعمال القمامة بملابسهم الصارخة يحتسون المشروبات، منخرطين في أحاديث يغص بها الفضاء والطرقات، كأنما يتنفّسون الحياة بعد عزلة ليلهم البهيم.

* * *

بطيئة تمر السحابةُ، لكنها لا تشبه هريرةَ الأعشى وهي تمضي إلى بيت جارتها، ولا نؤوم الضحى عند ابن أبي ربيعة؛ وإنما تجر برسغها عرباتٍ ثقيلة، ناقلات سجّانين في ظلمةٍ قاسية.

* * *

تنفجر الوردة في قلب المنظر العام للورود، معبّرةً عن قدرتها في التحول إلى غابة.

* * *

يمكن للسعادة أن تقفز من غيمة إلى أخرى. ومن حيوان أو نهر إلى آخر، لكنها ترفض أن تحط على أرض البشر بعد أن نزل الزمن والتاريخ بثقليهما على أكتافهم وروابيهم.

* * *

يمشي هائماً في الطريق، يصطاد العبارة تلو الأخرى كما تصطاد شباكُ الغيوم في منحدراتها الوميضَ الخاطف.

* * *

هذه اليد الطالعة من نعمتها الخاصة، من أعماق البحر وعلى ضفتيه النوارس هائجة في موسم السفاد، تمد لي دائماً تلويحة الرحمة.

* * *

لم يعد التفكير في الحياة أو الموت هو المهم، وإنما كيف نعبر هذا المضيق بأقل فداحة من المصائب والآلام.

* * *

مزّق النمرُ فريستَه شلواً شلواً ونام يحلم بفريسة أخرى. دَفَن الحانوتيُّ خامسَ جنازة هذا اليوم وما زال نَهمُه لا ينطفئُ له سُعار.

* * *

امرأة السرير غيرها امرأة المخيّلة. ولا تجتمعان إلا في لحظاتٍ تشبه بروقاً عابرة.

*　*　*

ممر طيران عاصف. كل دقيقة أكثر من طائرة تحلّق على انخفاض متوسّط، حيث مجثمها القريب الضاج بكل جنسيات العالم.
أظل أحدّق فيها ليلَ نهار محتدماً بالهوام تصدح في رأسي. بالأمس انفجرت طائرة الكونكورد لأول مرة في تاريخها. حتى الأثرياء مهما كانوا محصّنين بقدرات التكنولوجيا ليسوا بمنجاة من الخطر والموت.. العدالة الوحيدة على هذه الأرض.

*　*　*

لم أشاهد بحياتي طائرة تنفجر هكذا مباشرة إلا في الأفلام. لا أستلطف ذلك، يكفيني ما أعانيه من انفجارات في رأسي. لم تعد هواجس الفناء تستحوذ عليّ حين أركب الطائرة كما في الماضي، قلقي في السيارات أكثر منه في الطائرات والقطارات.. أنا الآن على مقربة من الفجر، حيث تحلق أسراب البط من البحيرات المتناثرة باتجاه النهر. نسائمه تصل إليّ هدية لصباح قادم.
بالأمس كنت أتنزه على ضفتيه المليئتين بهياكل السفن المحطّمة التي اتخذها المتشردون والمهاجرون بيوتاً دائمة. أستحضر أبياتاً لـ ت. س. إليوت: أيها التايمز الحبيب، إن صوتي ليس قوياً ولا عالياً. كنت ألاحظ كيف كانت المياه تنبعث تدريجياً من قيعانه وحوافه حتى تغمر الحواجز، ثم، مع نزول المساء، تبدأ بالانخفاض حتى الغياب.
حركة المد والجزر كدورة حياة الإنسان، كالحضارات البشرية التي تختزلها هذه القناة الكبيرة من النهر في الحياة اليومية لوجودها الذي يقول البسيط والعادي بأبعادهما الخفية، بأبلغ مما يقوله صخب الملاحم والكرنفالات.

*　*　*

في أوقات كثيرة، يتبدى معظم الوضع العربي – ثقافياً – دعك من شيء آخر، كأنما الجميع انخرط في مشهد هذيان جماعي يقوده قراصنة شرسون فقدوا كل أمل بالعودة بعد تحطم سفنهم وتحولها إلى أشلاء. يختلط في هذا المشهد كل أنواع العُصاب والهلْوسة والهستيريا وما لا يطوف بذهن علماء النفس ومفسري الأحلام والكوابيس. مشهد شبحي كالح. أضغاث أحلام لنائم في صحراء أو في مدينة كبيرة – لأعرابي من القرن الأول أو لمثقف حضاري في أرقى مدينة، لا فرق، حيث الانتهاك وصل إلى أقصى الحد الأخلاقي والروحي والفطري. الجميع ضد الجميع وهم ضد الفرد. والفرد ضد نفسه من فرط تقديسه لأوهامه واكتشافاته المريضة. لا تكاد تتبين أي ملمحٍ يقودك إلى وضع بعينه من فرط كثافة هذا الانتهاك والالتباس اللاإبداعيين بالطبع.
كأنما ثأر قديم يحرك عملية انتقامية جبّارة، كأنما تراكم ميراث الانحطاط والقمع ينفجر على هذا النحو العجيب. لقد فقدت الأشياء والقيم كلّ قوام لها.

إنها ليست الفوضى الخالقة والغضب الذي ينم عن طاقة النقد والاحتجاج. إنما الانحدار المقيت لإنسانية الإنسان وميراثه القيمي الذي ناضل واستمات من أجله طويلاً طويلاً جداً في الزمان والمكان والموجود في أدنى فئات المجتمع حسب السلم المتداول.. ما الذي يمنع سائق الشاحنة الذي يجلس أمامي من توجيه لكمة تعيدني إلى عُمان أو القاهرة، إلا ما تبقى من خيط القيم ومكتسباتها؟ حتى لو فُرضت بقوة القانون الذي هو مكتسب إنساني منذ حمورابي والذي سُحق ويُسحق مع أول هياج أعمى للغرائز والمصالح.

* * *

ما الفرق بين فجر مدينة وأخرى؟ وحتى فجر القرية التي تصحو على غبش أصوات الديكة والجنادب وحيوات الطبيعة الصافية وليست العربات والضجيج؟ لا أكاد ألمح إلا الشبح وهو يعبر في تهاويل الظلام، مرآته المقعّرة؛ لا أكاد ألمح الفرقَ إلا لماما.

* * *

لقد لمحتُ الفرق بين فجر المدينة وفجر القرية الزاحف بروائحه ومخلوقاته الحية، يعبر روحي بسكينة طفل حلمتُ به قبل ولادتي، يكاد ينفجر فرحا في وجه العالم. لكن بعد فترة، ضجرت من السكينة وملاَحظة الفروق.

* * *

كان ينتظرها في القرية الوادعة على مشارف جبل قاف، لتضفي مسحة جمال على روحه الخرِبة، لكنها لم تأت.

* * *

أولئك النساء اللواتي توارين في الغياب، هل بقي فمٌ صالح للقُبلة مثل مكان للسكنى، بعد أن أفسد الدخان والخراب كلّ شيء؟

---

* شاعر من عُمان، رئيس تحرير مجلة «نزوى» .

# بغداد تنحاز للدائرة:
# الخليج وصدى النشيج

عزت الغزاوي*

(إلى قامة المنصور العالية)

-I-

لم يعد حصار فلسطين بداية الهمّ حين تحركت السيارة من مدينة رام الله إلى الجسر. الهبوط إلى أريحا صباح ذلك اليوم كان صاعقاً كأنني أعبر الطريق لأول مرة. منظر المتراس الرملي على مدخل المدينة يُذكّرُ بالاستعداد لحرب كبيرة. قف هناك. تحرك. بطيئا تزحف الحافلات وتعبر الحاجز الأول. «لا بدّ من صنعا وإن طال السفر». بإمكانك أن تستبدل بغداد بصنعاء. يسهل المرور من بوابات نخيل المدن التي تحبها. سيصدمك النخيل. ستتذكّر بداية أنشودة المطر للسياب – «عيناك غابتا نخيل ساعة السحر / أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر».

لا بدّ من بغداد وإن طال السفر! والسفر يطول. تسأل نفسك كيف ستقطع كل المسافة إن كنت خلال ثلاث ساعات لم تعبر أريحا. أريحا أولاً وثانياً وثالثاً. لا سور للمدينة قوّضه الطوفان أو دكته الزلازل. الاستراحة تتثاءب بتكاسل. مسافرون أتوا من أماكن كثيرة يشكون صعوبة الحال ووعورة الطرقات. تتأهب الحافلة كأنها تتحدى آخر الشوط . ستمضي المسافة القصيرة إلى أن تصل «مشروع العلمي». تقف هناك أمام الحاجز. العيون تخترق زجاج الحافلة وصفيحها تتابع حركة الحديد. ربما يضغط الجندي المعلق فوق البرج على جرس الكهرباء. ربما حدث اشتباك ما قرب أريحا فغضب الحاجز وأبى أن يرفع ذيله عن وجه الأرض. عشب بدأ ينمو هناك. لم يخف الأخضر من الاستجابة لسحر المطر. «مطر، مطر» يقول السياب ويمضي مع النشيج.

للجسر طقوسه الخاصة والمريعة. عبرناه في السنوات الأولى للاحتلال. إلى جانبي يجلس محمود أبو الهيجاء لا تفارقه الابتسامة ونظرة التمرد القاسية. «علّه قط جارتي» سيقول أبو الهيجاء بصوته المبتهج بالقصيدة. نعم. عبرناه في السنوات الأولى، وكان أكثر قسوة من أي شيء. دخلناه في الساعات الأولى

من الصباح وغادرناه وقد خلعنا كل ملابسنا مع ساعات المساء. دخلناه خائفين وخرجنا منه أكثر خوفاً. دخلناه بقلوب تسأل عن سر العتمات في القرى، وخرجنا منه وقد فتشوا كل شيء في أجسادنا إلى أن ابتلعتنا أزقة المدن وأعباء السفر مثقلة بزحام القلق. ما يهم الآن والسفر إلى بغداد هو الهاجس؟
وبغداد المدينة الأولى في الذاكرة. كم أشعر بالخجل لأنها المرة الأولى التي تطلق فيها الأقدام زحفها إلى بغداد. ولم يكن ذلك دون سبب! كان بالإمكان أن ينتهي العمر وحلم السفر إلى هناك معطل. لا بد من بغداد وإن طال السفر. والجسر يجأر بالنداء. البوابة الأولى انشقت ببطء خرافي. أغلقوا النوافذ واختنقوا.
احملوا بطاقاتكم وأقرأوا عناوينكم وأسماءكم. سينزل الجنود بعد لحظات ليقارنوا ما بين الصورة والصورة. البوابة الثانية جاهزة لابتلاع الحافلة. تغفو في الحلم وتحسب المسافات. قد تكون ألفاً من الكيلومترات قبل الوصول إلى مدينة عاشقة لها موعد مع المطر. أنشودة المطر. عين الزجاج لا تراها لكنها تراك. هناك من يسأل عنك. هناك من يطلب أن تخلع نظارتك حتى يتأكد من هويتك. لكنك على الأقل لا تخلع الآن ملابسك قطعة قطعة وتتعرى من كل شيء. يطلقون سراحك في غفلة من الدقائق. لا بأس من بوابات أخرى. ستنتظر شيئاً من الوقت كي تمضي. الجسر الخشبي يئن تحت الحافلة. الماء من تحته معكر بالطين. الماء من تحته ينسرب تحت القصب بشيء من الغضب، وربما الإعياء.
كم من السنين مشى بالماء إلى حيث البحر الميت، وكم من المرات فار بالزبد وملأ الضفاف بالخصب وكان له موعد مع عشتار؟ لكنه يغور اليوم لأنه منهوب حد اليأس. هي لحظات يتوجع فيها الخشب على وجه الماء. صمت المسافرين صلاة صغيرة. سكت الجميع حتى الأطفال في أحضان أمهاتهم. هدهدهم الصوت الرتيب وسرح بأصواتهم إلى مدارات الصمت. ليس من مسافة في المكان تفصلك عن الأردن النهر. تعمدوا بالماء الشتوي. تعمدوا من حفنة ماء قبض عليها يوحنا المعمدان لم تجف قطراتها بعد ألفي عام، لكن الخطوات تغيرت مع تغير الغزاة. تريد أن تقرأ «أنشودة المطر» لمرة وحيدة على وجه الغور لتصعد بها جبال السلط قبل أن تلج الصحراء؟
سيارة الـ GMC تعدو خارجة من عمان باتجاه الزرقاء. لا بد من بغداد. تتغير الملامح كرائحة الغيم المسافر. التراب اكثر التحاما مع الشمس. الامتداد للعين سجادة مفروشة بسخاء. كل هذه المسافات لنا. علها تكون صالحة للزيتون لو أن يداً أعملت فيها رقة الحفر! الأزرق براح وئيد. الأرض مبلولة بالسماء، والواحات تلوح من بعيد. العين ترى طويلًا في الجهات.

-II-

لا نهاية للطريق. على الجانبين يمضي البراح لكنه الآن يتوهج بالحصى السود. الأرض مزروعة بالأسود. بعض المساحات مجروفة من حجارتها، مهيأة لزراعة من شجر أو خضرة. في البعيد، إلى الجنوب تصعد تلال عالية تألقت بأنوار المساء. الشمس منحدرة في هبوطها. السيارة تعدو وظهرها للمغيب. في الشرق حيث العراق تهبط عتمة خفيفة تمعن في الحلكة مع مرور الدقائق. «الرويشد» تلوح ببيوت طينية صغيرة متناثرة. ناقلات النفط تجثم في الطرقات مختبئة من السفر. سائق لفّ

حول كتفيه معطفاً رمادياً ونام خلف زجاج النافذة. «الرويشد» تطلق أنوارها للشوارع. على الجانبين محلات مجنونة بالأشياء المكدسة. كل شيء على العتبات معروض للأسعار. المقاهي والمطاعم تنشر روائحها. صبية يقنعون الوافدين الذين يتوقفون للاستراحة بحاجياتهم الصغيرة. صبية يَعرضون مساعدتهم. الرويشد صامتة رغم الحركة. هذه آخر البلدات قبل أن تدخل الحدود العراقية. الشاي معتّق بالبراميل الزنكية. البوابير تهدر تحت الماء. لا بدّ من بغداد! ربما تساعد كاسة شاي على تصحيح وضع الرأس المضطرب. شيء من البرودة اللاسعة يتغلغل إلى الصدر. إنها انفراجات الصحراء الكبيرة.
جلسنا إلى الزجاج الكبير داخل المقهى. البلدة شارع واحد عريض يمتد إلى أجل. الشاحنات تتوقف بزعيق حاد. النفط ينقط من مؤخرة الشاحنات ويسيل إلى الأرض. من الصحراء أتى وإليها يعود. الشاي يطوف الأرجاء برائحته اليقظة. العتمة تستوي كحبة باذنجان مكوّرة بحجم الصحراء. شاي وسيجارة وهواء يلسع الأطراف.
بعد قليل تصبح الامتدادات محسوبة ببوصلة واحدة فقط: القلب سيرى الرمال الهاربة من وحدتها. للشاي طعم مختلف حين يكون السفر. للقلب مداركه البعيدة! الرويشد تهدأ مع الليل، ولا يهدأ الرحيل. الوجوه متعبة، والعيون قادمة من أركان الأرض. السيارة تسابق الريح. الأضواء البعيدة قادمة من نجوم السماء. ليس من ثلج خرافي يفرش الأرض. «طربيل» غافية في برد الصحراء. أول الخطوات على أرض العراق لها نشيجها الخاص. ستنتهي المراسيم الخاصة بوثائق السفر ونقفز مرة أخرى إلى السيارة. البراح من سمات الكون. «سفر. سفر. سفر». معين بسيسو كان أيضاً هنا! كانت له مواعيد مع حكايات الخلق الأولى والغمر الكبير.
الساعات الطويلة تحرّك أشجان الجسد. تشيخ يا رجل مع الأيام الأولى من عبورك الخمسين. لا تعترف بأنك مللت الرغبة في الخروج إلى المسافات. تبكي بصمت حين تذكر أن هذا الامتداد في عمق الدنيا رغم اليباب هو امتداد لك. تحمد الله في سرّك. علّه ذات يوم يتفجر بالينابيع والشجر والناس. يا هذا الوطن! أغمض عينيك واسرح إذن ولا تعاكس رغبة الجسد في ساعة من خلاص. السائق نسرٌ والشارع طراد طويل. لا بدّ من بغداد! هل أشتاق إليها كما نشتاق نحن؟ لا بأس. الجيوش والأعلام والسيوف مرت من هنا. نقطعها اليوم بالسيارة وقطعها الأجداد على ظهر الخيول. صورة حزينة للحسين بن علي تطوف على ظهر جواد. دمعته الكبيرة مسحت الأفق وأعطت هذا الحزن للعراقيين. بالتأكيد لم يكن يقصد أن يثير كل هذا الجدل والعذاب، لكنه فعل. لم يخرج من ضمير القتلة، ولم يخرجوا من أسره. لكنه جاء بأوتار الوجع من كل صوب وصعد إلى السماء، كأنه ذبيحة مقدسة، عاشق ومعشوق ومليء بالغصات. نم قليلا على صورة معركة خاسرة لم ينتصر فيها أحد سوى صوت الناي. الليل بهيم وراء النافذة. اختفت صورة الحسين في نور النجمات البعيدة. والنوم لا يأتي. النوم طقس له خصوصية السرير وحديث الوسادة وهدهدة لا تشبه هدهدة محرّك سيارة مسرعة. سنقف في «المئة وستين» بموازاة الرطبة. لا شيء تراه العين سوى خيال تلال مترامية، وقد عاد المطر من جديد يرمى بحباته على الزجاج. «أتعلمين أي حزن يبعث المطر / وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟» يقول السياب. ما العلاقة بين المطر والحزن؟ ربما هي علاقة الخوف من الانقطاع عن الحياة لو انقطع المطر. والمطر في شرقنا شحيح،

وبدلاً من أن يأتي بفرحة خالصة، يأتي بحزن الملهوف. برق يضيء الشمال، ورعدٌ مكسور. أضواء «المئة وستين» تزيح الكآبة. كل الشياه تعثرت على طريق العراق خلال عشر سنوات من الحصار، فمن كان مسؤولاً عنها؟

نخرج مكبّلين بدفء المكيف داخل السيارة.

في العراء رعشة برد صحراوي سمعنا عنه ولم نلمسه من قبل. الواقفون قبلنا طلبوا الشاي وانسلّوا إلى الحمامات. الشواء يسهر بمجموعة من الشباب الذين غطّوا رؤوسهم بالكوفيات. محل البقالة مفتوح وبضاعته معروضة في كل مكان. سجائر وعلب كولا وتمور وبزورات وصابون. شيء ما يدعو إلى الاعتقاد أن بساطة شديدة تغني للمسافرين أغنية لقاء سريع. هنا نشرب الشاي ونستريح قليلا ونمضي مع منتصف الليل باتجاه بغداد. بعيدا في الأفق لا شيء يضيء. ندخل الطريق إلى الليل، وأمامنا ساعتان من المسير قبل أن تنتشر بغداد. الرائحة تتغير فجأة.

ربما يكون ذلك بسبب النهر الذي لا نراه. يهتف السائق: «نحن في الضواحي». منبسطة بأنوارها، والقباب شاهقة، وقلة من الناس يعبرون الشوارع. السيارات تزحف كالنمل الدؤوب، والنعاس والتعب يبغيان سريرا لا تسأله عن حاله. بل ربما يسألك أنت عن حالك. «الكرادة» مكان. في المكان فندق بابل. يقول السائق: إننا اقتربنا . الحارس يدقق النظر في وجوهنا ثم يفتح البوابة. لا وقت لأيّ انطباع. ولما تأخرنا في القدوم ظنوا أننا لن نأتي، لذلك اخذ الحجاج الإيرانيون غرف منامنا! أين يلقي النعاس أوراقه الذابلة؟ قلت للشاب الذي حاورنا: أريد أن أنام في أي مكان.. ما بين القدس وبغداد تعب خرافيّ لا يحتمله جسد. بذلك أصبحت الغرفة الضائعة جناحا كاملا فيه سرير وصالون. النعاس قانع بزاوية معتمة عليها مرتبة دافئة ومرتبكة بالصمت. الثالثة صباحاً بتوقيت بغداد. الوقت يفقد الرؤية والضرورة والحكمة وكل شيء. النوم خلاص الجسد. الجسد يموت في الخلاص.

-III-

أول ما جال في خاطري صباح اليوم الأول في بغداد هو أن أشرب شيئا من المدينة. كيف عساها تكون في اللقاء الأول. غرفة الفندق الكبيرة تحتمي بالصمت، والستارة لا تقول شيئاً.. بيد خائفة سوف أحرك الستارة لتهبَ شيئاً من مكان. ربما تقف بناية كبيرة أمام النظر فينحسر، مما يتطلب البحث عن شرفة معلقة في السماء تبوح بأسرار المدينة. الستارة البنية تطيع الحركة وتدور على نفسها: كانت الشرفة أكثر كرماً من أي توقع. دجلة يعرض ضفتيه للشمس، يأتي من الشمال بطين خفيف. الماء سر الحياة. الحياة تحتفل بالماء بطريقتها الشجية. دجلة المسافر منذ الأزل تغيب في أعماقه أغاني بغداد، أحزانها، أعراسها، كتبها ، قولها والأناشيد. على الضفة شاب بصنارة صيد. عله يحتفل بساعات الصبح وموعد مع سمكة أغرته بالصبر. رجلان آخران يبنيان حواف النهر بحجارة ملساء. لو أنك تمد يدك السحرية وتغرف من ماء النهر ما يعبئ راحة اليد لتنثرها على وجهك. تستفيق إذن على إغواء مدهش وطازج. ماذا سيقول النهر لو سمع منك كلمة «طازج» وهو الذي حل بالمكان منذ كان؟ لا يهم. لن أعبأ بسخرية الرب القديم ما دامت الطزاجة شعور داخلي ليس له علاقة بالسنين. النوارس تحلّق قريباً من الماء وتنهض

مبلولة الصدر. في البعيد قبة شاهقة عجزت عن ارتياد السماء وتوقفت قرب غيمة طافحة بالأشكال. الجسور تريح النهر من انفلات ضفتيه: تجمعهما في نقطة لقاء وسرب السيارات ينسل سريعا دون انقطاع. البيوت ممعنة في التصاقها بالأرض ولا تحجب مدار العين.
بغداد تنحاز للدائرة. ما من مدينة أخرى رأيتها تثبت كروية المكان بهذا العناد. تطوف العين بدائرة واسعة وراءها دوائر وتخترقها دوائر أخرى. الحوار مع المدينة عبر الشرفة يغري بصفحة مقلوبة لا تدري أي الخطوط نُقشت عليها:

«يقولون ليلى في العراق مريضة

فيا ليتني كنت الطبيب المداويا».

وليس هنا من ليلى امرأة. هنا مكان يحتضنك بابتهاج. لا تدري أي سرٌّ يجعل اقترابك غامضا وصاعقا. أنت في حال وصال لا نعرف حدوده ومعناه وأغواره. الفندق يقفز بجنون المعرفة. البقعة حدّ فاصل ما بين الكرخ والرصافة. يعجبك تداعي الموسيقى:

«عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري».

حدائق بابل المعلقة تسيطر على تاريخ العشق الخالد. الفندق يحاول تصميم الحدائق المعلقة. يحاول أن يغري امرأة من الجبال جاءت إلى بغداد أسيرة قلبها، ولما رأت المكان يحوم في السهول أرادت أن تصعد إلى جبال التحدي. الأسطورة أقرب الأشياء إلى الصدق لأنها توائم ما بين القلب ورغبات المعرفة. كان لا بد من لحظة يتوقف فيها نزيف قرون من التاريخ. لن يقرأ أحد بغداد بين دفتي كتاب! عليه أن يراها ويلمس حنينها للصعود ساعة الصبح إلى السماء. أمام المصعد الذي شغله عشرات الرواد شرفة من نخيل هي الضفة الأخرى لدجلة.
كم من الوقت معك كي تعبر بعينيك كل هذا الشجر، والنخل باسقات؟ لا عليك،سيكون وقتٌ .. فكيف تبدأ، وكيف تدخل المدينة؟

-IV-

والمكان يختفي داخل الأروقة. يقفز في الذاكرة ويحنّ إلى المشاوير، لكن البشر يأخذون حصتهم من القلب. هنا فلسطينيون جاءوا من أماكن كثيرة يلتقون في بغداد على ساحة الحصار والشعر، لا بد أن نبـحث عنهـم في خارطة الجغرافيا الملوعة بالشتات. الداخل وطن، والخارج وطن. والشتات خيمة هائلة.
ما الذي يجمعنا على فسيفساء الخارطة سوى هذا الجيب المنكود الذي يتخلى عن أي شيء ولا يتخلى عن الوطن؟ كم وددت لو أن مشاكلنا تختفي أمام حفاوة اللقاء ببغداد! على أن الاختلاف على الطريق مكتوب عليه أن ينتصر. تعالوا نتفق على فلسطين أولا. تعالوا نؤمن أن خيمة الغربة لا تجمع تحت

خبائها سوى التفاصيل. ماذا لو خسرنا بعضنا في زحمة الأسئلة والخوف من المستقبل؟ نأتي إلى هنا من سوريا والعراق أو لبنان والأردن ومن داخل الوطن. نكاد نقرأ وجوه بعضنا في القلق. خالد أبو خالد الذي يطير بشعره الطويل إلى غابة السنديان ما زال يحمل في روحه شوكة من أحراش عجلون ومتاريس لبنان. تنكره هدأة الليل والشوارع الخالية ويجد نفسه على كرسي في مقهى، أمامه ريشة فـنـان ومـحـبـرة
ووجه حزين. أما نعمة خالد – التي أراها لأول مرة – فقد خيل لي أنها خرجت فجأة من حصان طروادة .

تحسّ براءة وجهها مرسومة في النور: يا امرأة الشهيد الجميل الذي بقي واقفا، كيف تجمعين حولك هذا الوفاء لعكا.. أغبط علي فياض الذي يعرفك أكثر منا جميعا. أغبط هذا الرجل الذي يسابق الندى. خرجت غنيا به لأنه وهبني صداقة مفاجئة من ذلك النوع الذي يحسّه المرء دون إشارة أو حاجة للكلام. ليس من شيء غريب. أنا الروائي أفهم ذلك تماما لأن للقلب حاجة ماسة في محطة طافحة بأنوارها. علي فياض لا يحمل الفرح فقط ، بل يحمل الأثقال أيضا. استطعت أن أراه في ابتسامة جواد عقل ونافذ أبو حسنة وأنور رجا وبهاء شاعرنا يوسف الخطيب وفطنة الصديق فضل شرورو وصمت سهيل الناطور.

لا بأس. لم نستطع أن نلتقي طيلة الوقت على مفترق طريق. ما أكثر حزننا لأننا أيتام لم نتمكن من ضبط الحكمة في صندوق الحكايات. كيف لنا أن نتيقن من حلم فيصل زكي حامل النهر الهادئ أو كبرياء أديب ناصر، رجل الصوت القوي؟ دون أوهام أتيت، ودون ضجيج. كان لديّ استعداد أن أخسر أي شيء سوى الأحباب الذين بادلوني سؤال الطين، قريباً من خاصرة القدس أو بحر الجليل.

-V-

كان يوما كاملا من الجدل وحديث اللقاءات. لم أتمكن من الخروج إلى فضاء الشارع لحظة واحدة . كانت قضية إعادة مقعد فلسطين في الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب شغلنا الشاغل.. الهم العملي الذي يقيد الحنين إلى المكان الأسطوري الذي شغل الحضارة الأولى في العالم. «نشيد الخلق» يتسلل من ضفتي دجلة إلى حدقات النخيل. في الردهة وقف شاعر العراق حميد سعيد بوجهه القادم من غياب. بكينا وبكى على الأكتاف، والدمعة تمزج الحصار بالحصار، ولم يستطع البقاء طويلا أمام عبارات الذاكرة. لن يخرج أحد مهزوما من بغداد! بتلك الكلمات انزاحت المسافة ما بين الردهة والشارع: الرائحة واللون والسماء بغداد. الأقدام إذن تطأ الأرض.

ليس من وهم. هذا التراب الأسود الذي جاء به الغمر الكبير واهب الحياة للشجر والناس. سيارة التاكسي مغلفة بالأصوات. كيف تبدأ باستيعاب المدينة؟ الدائرة لا تريم. الجسور معلقة فوق النهر، والبشر يزحفون إلى قبلة الصباح، كل بأحماله. السراي الكبير بردهاته المخروطية العميقة جمع ذاكرة الخراب الهائل في المباني التي أعدمها العدوان. هنا خارطة تحدث عن نفسها ببلاغة: ما كان وكيف صار. شيء وحيد لم يكن بالإمكان حفظه في السجل: الناس الذين أخذهم الطوفان من حبهم وألقى بهم إلى جوار التلال متوحدين مع التراب. أما «ساحة الهرج» فتمشي مع الأقدام بكل شيء قديم من أجهزة الراديو إلى

الساعات.. البوابير، المفاتيح، البراغي، السكاكر، اللوحات القديمة.. يشترون ويبيعون. فرحون بما لديهم، والحياة تمضي بفورانها. صبي يحمل صينية شاي.
نتوقف قليلا ونشرب الشاي قرب شاحنة صغيرة تفرّغ حمولتها من الأبواب والشبابيك. قرب محل ساعاتي يبيع الساعات القديمة تذكرت ساعة أبي: ساعة الجيب «الجيني» مشقوقة الزجاج التي رافقته نصف قرن من الزمن. اختفت بعد موته ولم أُفلح في العثور عليها. أردتها هدية من حبيب. هل كنت سأحصل على أي شيء قضى معه نصف قرن بحميمية الصبح والمساء وساعات الليل؟ تحركت بي رغبة شراء ساعة مشابهة علّها تسدّ الوهم الذي كان. الرغبة لم تدم طويلا. كتب شارع المتنبي في الظل تحكي عن مكتبات شخصية قرر أصحابها التخلي عنها من أجل لقمة العيش.
مريرة هي لقمة العيش، تجعلك تتخلى عن رفقة عمر وسمر طويل وساعات من حوار. إنك لن تفعل شيئا لتعبّر عن ثورتك على الفكرة. تشعر بقشعريرة حين تفتح الصفحة الأولى من كتاب لتقرأ عليه اسم مالكه، خطوط يده، حواشيه. تخرج من المكان بسرعة الهارب. محمود أبو الهيجاء– الذي يعرف بغداد– يدخل إلى بناية قديمة فيها صديق فنان يعتاش من مكتبته. الرجل هو يوخنا دانيال، يعتز بأصوله السومرية. غرفة مشوشة بالكتب واللوحات وكاسات الشاي، ونافذة تحرس الشارع وحركة البشر. في طريق العودة إلى الفندق غنّى سائق التاكسي بعفوية خالصة. «ربيتك زغيرون حسن / ليش أنكرتني». الصوت شجيّ عميق على جناح ناي مسافر بالمدينة المفتوحة عبر شارع حيفا. ما زلت أذكر ، ولن أنسى، كيف تغيّر لون وجهه حين عرف أنا قادمون من فلسطين. أراد أن يلقي بالأجرة من النافذة. أراد أن نعود إلى التاكسي كي يصحبنا مدة أطول. لكن الزمن يهدر بساعاته.

-VI-

في الليل كانت بغداد مغسولة بالمطر. جلسنا في باحة الفندق نرثي ازدحامنا الذي يكسر الوقت. ثمة فسحة صغيرة من التأمل لا تمد أجنحتها. حديث السياسة لا ينتهي، والحياة مأهولة بسؤال السياسة. يقف كل منا على حافة اللحظة القادمة، ينفخ الدفء في حكاية عجيبة كأنها لم تخرج من شرايين الناس. كاتب من العراق عرفته بالقول وهو الآن معي في الصورة. جاسم عاصي الذي أحببت أن أراه ولم تسمح لنا الظروف باللقاء في عمان. هو يبحث عني وأنا أبحث عنه. لم تكن صورة الخيال بعيدة عن الواقع. الميناء ردهة تنعف بالناس لكنهم يغيبون أمام دهشة لقاء اثنين لأول مرة. من هدوء يكون الرجل جاسم عاصي، ويحملني إلى صديق تمنيت معرفته منذ زمن.. رجل يملك ابتسامة ود ساحرة. ماجد السامرائي الذي يكبرنا سنا وثقافة، لكنه بروح التواضع الجم يجمع الفراش والنور من حوله.
حملنا صباح الخميس 25 يناير إلى محافظة بابل. في الطريق نادانا ملح الأرض الذي يتدفق من أحشائها، كما نادانا رغيف ينضج في غفلة من الوقت. البراح مرة أخرى يتدفق كأن كوكبا آخر يستضيفنا. هنا كان موقع المدينة القديمة «بابل» يتأرجح في بركان من النور. أسد بابل يجثم بين التلال حارس أبدي، والمدينة المقوضة ترتفع من جديد بصورتها التي كانت منذ خطها أول معماري. قاعة العرش باتساعها تستجير بالأسوار العالية، وطريق الموكب الملكي يغزوها العشب النابت. الكاتب المصري سيّد البحراوي

يتلهف على فنجان قهوة قبل الرحيل إلى الحلة.

وجدنا ضالتنا لدى فندق صغير مأهول بمقهى. كثير من الدفء طار إلينا مع دخولنا الباب. لكن المشوار إلى «الحلة» ومقام ابراهيم كان ينادي تحت ضغط جدول الوقت. صفيّ الدين الحلي غنى من هنا أشعاره الجميلة. تتشابه البلدات والبشر والآفاق والمسافات. النخيل على الجانبين مفتون بالسماء. السيارة تنحرف بين التلال عبر طريق ترابي إلى المقام الحزين. بضع نسوة جلسن في الباحة يبعن الحاجيات. داخل المقام، استفاق رجال ونساء على دخولنا. رائحة المقام ومضة من السمك المالح، والكهرباء مقطوعة من الصبح. صخرة الولادة حيث أفاق ابراهيم على الدنيا مختبئة بالعتمة ولم يفلح المصباح الزيتي في إضاءة معالمها. خارج المقام المبني على تلة مرتفعة تمد النظر لتقابلك قلعة بابلية واقفة في الريح رغم ما ألم بها من عاديات. المسلة في أعلاها غافية بكامل بهائها، قريبة من السماء. الدائرة تنتشي من جديد خلف الأفق، ساحرة باتساعها. اللغة لا تكفي كي تفهم مسارب القلب، لكن الأشياء تجري وراء الدائرة.

---

* روائي فلسطيني يقيم في رام الله .
رئيس اتحاد الكتاب الفلسطينيين / القدس .